قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد:

لا مرية أن القرآن الكريم غني بالقواعد المنهجية اللازمة لضبط العمل الدعوي، وترشيد ممارسات الدعاة العملية في سائر ميادين الدعوة.

ومن البديهي أن نجاح أي عمل مرهون بنجاح منهجيته، ونجاح منهجيته مرهون كذلك بقوة التصور والإدراك اللازمين لفقه الواقع فقهًا ينسجم مع طبيعة العمل الدعوي، وهو فقه يمتد ليشمل عناصر متعددة تلزم لصياغة القواعد المنهجية الراشدة، ومنها:

١ ـ فقه الأحداث والوقائع والمؤثرات، وما يجب أن يقدَّم وما لا يجب، وما ينبغي فعله وما لا ينبغي، وفقه الأعراف والعادات والتقاليد، ومدي انسجام الإنسان معها وانفعاله بها، ومدى استعداده للتخلص منها والاستمساك بها.

٢ ـ فقه طبيعة الإنسان "كمدعو" [(١)]، ومن ذلك فقه طبيعة التكوين، ومعرفة مواطن القوة فيه والضعف، والدراية بطبيعة التأثير والتأثر، وعوامل القبول، ودوافع الرفض، وتفهُّم نوازع الانتقاد، والثورة، واستبصار جوانب الخير فيه والشر، ومعرفة روافد الطمأنينة الذاتية وعوامل اليأس والقنوط، ومراعاة تفاوت الإدراك ومعرفة مدي جموده ومرونته، وتردده وثباته، وإمكانية إقناعه ودرجة اقتناعه، وضرورة معرفة توجساته وآماله، وقوة إقدامه وإحجامه.

وهذا كله لازم لمعرفة صياغة الدليل ومعرفة مدي فعاليته، ومعرفة كيفية اقتناع المدعو به وطرق إقناعه.

---

(١) وفقه طبيعة الإنسان كمدعو جزء من فقه طبيعة الواقع، لا يمكن فصل احدهما عن الآخر، كما لا يمكن فهم الواقع بمعزل عن الإنسان ولا فهم الإنسان بمعزل عن الواقع.

obeikandl.com

إذ أن ملاك الأمر في عملية "الإقناع والاقتناع" هو "إنشاء الدليل" وإن شئت فقل "بناء الأدلة"، وطالما كان الدليل قويًا كانت عملية الاستدلال على قضايا المدعو إليه قوية، وضعفها مرهون ـ كما لا يخفى ـ بضعفه.

بيْد أن القواعد المنهجية الاستدلالية التي نستنبطها من القرآن الكريم تستلهم قوتها من قوته، وشموليتها من شموليته، وسبحان الله تعالي القائل.

﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[1].

والحكيم هو الذي يضع الشئ في موضعه، ويقدره قدره، ويحكم تدبيره، ويعرف ما يترتب عليه من آثار[2].

والله تعالي يقول ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[3].

(١)سورة فصلت (٤٢).

(٢)مفاتيح الغيب (٢٧/ ١١٣)، وتفسير محاسن التأويل للقاسمي، تخريج محمد فؤاد عبد الباقي (٤/ ٢٨٠) دار الفكر، بيروت، ط (٢) ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م، والنكت والعيون للماوردي، مراجعة وتعليق: السيد عبد المقصود عبد الرحيم (٥/ ١٨٦) دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط (١) ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

(٣) سورة الملك (١٤).

obeikandl.com

المبحث الأول

صدارة النص القرآني والحديث الشريف

من روائع قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم "صدراة النص القرآني المبارك والحديث الشريف" على أن هذه القاعدة تأتي علي رأس قواعد التأسيس والبناء لمنهج دعوي راشد ومنضبط، ذلك أن كل القواعد تنبثق من معين القرآن الكريم والسنة الشريفة، فهي تمتد لتضرب جذورها في معين الوحي الإلهي، وتقتطف ثمارها من حكمة النبوة، وذلك لما يتمتعان به من الكمال المطلق.

على أننا نقصر دراستنا هنا على القرآن الكريم باعتباره موضوع البحث، ولأننا لا نستطيع الجمع هنا بين قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم والسنة الشريفة. لكننا نومئ هنا إلى صدارة النص القرآني والحديث الشريف باعتبار إرساء القرآن الكريم لهذه القاعدة في منهج الاستدلال.

صدارة الكامل ضرورة عقلية:

القصور لازمة من لوازم التفكير العقلي، لأن العقل يعتمد في مداركه على وسائل محدودة الإدراك، ضيقة الأفق، ومعرفة العقل سطحية النظرة، وإن تعمق العقل في بعض الأحيان في مسائل التفكير والتأمل، وقضايا النظر والاستدلال، فإنه ما زال يعجز عن إدراك ذاته، وإماطة اللثام عن جوانب مجهولة في طبيعة إدراكه، من ثم يعجز عن إدراك حقيقة كثير من الأشياء، وخاصة ما غابت عنه، أو استترت، أو تأبت على الظهور له، ومع تقدم العمل العقلي وتفوقه إذا ما قورن بسائر المخلوقات، ومع نهوضه ورقيه، ومع اكتشافه لمساحات من المجهول في الكون، إلا أنه يقف عاجزًا عن إدراك جوانب الغيب أو "اللامنظور" .

ومع قدرته على القياس والترجيح، والتمييز بين الحسن والقبيح، والحق والباطل، والغث السمين، وبناء المقدمات وترتيب النتائج، وإدراك العلل، وإزالة الاشتباه والوصول إلى معارف ظاهرة بينة إلا أن شيئًا من ذلك كله لم يكن منحة ذاتية، وإنما كان منحًا ووهبًا من الخالق سبحانه وتعالي للعقل ليدرك حجم إدراكه، وليدرك قيمة رسالته في الحياة، ويدرك دلالات الخلق على عبودية الخالق، وليكون مناطًا للتكليف، ووعاءًا للرسالة.

والعقل يعترف بالعجز عن إدراك المزيد فيما يؤمن به وما يراه ويحسه إلا بإعانة وتوفيق من جهة أخرى، وأو بالأحرى من مصدر تتصف معارفه بالكمال والدقة، والعمق والإحاطة، والشمول والانفتاح على جوانب المرئي والمشاهد، والمستتر والغائب، ليزوده بوسائل الإدراك، ويكشف له حقيقة المدركات، لتتفتق المعارف من دائرة المجهول، فتضيق مساحة المجهول أمام حكمة الوحي.

وهذه بديهة عقلية ونتيجة حتمية لا ينكرها إلا معاند ومكابر، ذلك أن من بديهيات العقل أن القاصر يحتاج إلى كامل، والعاجز يفتقر إلى قوي، والضعيف يفتقر إلى قادر، والجاهل إلى معلم ومعارف العقل في مجملها تتصف بالعجز والضعف، وتفتقز إلى مصدر معرفي يحقق لها ما لم تستطع تحقيقه، فضلاً عن أن وجود العقل مفتقر إلى موجد.

من ثم كانت حكمة الله تعالي في إرسال الرسل، وإنزال الوحي الإلهي بالرسالات لهداية العقل إلى الحق، والتفريق بينه وبين الباطل وبيان الغواية من الرشاد، والهداية من الضلال، والصدق من الكذب والحسن من القبيح، والصالح من الفاسد.

إنه يبين للعقل جملاً من المتناقضات[1]، ويوضح له شارات كل مناقض لنقيضه،

(١)وسوف نفرد لهذه القضية مبحثا خاصًا في ثنايا هذا البحث، والله تعالي الموفق والهادي إلى سواء السبيل..

obeikandl.com

ومقابل لمقابله بما يساعده على الفصل في الحكم، وقطع سبل الالتباس، وسد منافذ التردد والحيرة والشك والارتياب.

فالعقل يقطع بالمعطيات القطعية التي يرد بها النص القرآني، وينسجم معها، ويتباري في الدفاع عن قناعاتها، والترويج لقطعياتها.

هذا فيما يتعلق بدلالاته القطعية، أما ما يتعلق بدلالاته الظنية من المعانى فهو إعطاء العقل فسحة لتدبر آياته ومعانيه، وضبط اجتهاداته ومداركه.

ذلك أن (دلالات آيات القرآن الكريم إما قطعية وإما ظنية .. فالنص القطعي الدلالة هو ما دل على معنى متعين فهمه منه ولا يحتمل تأويلاً ولا مجال لفهم معنى غيره منه مثل ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ﴾[1].

وأما النص الظني الدلالة فهو ما دل على معنى، ولكن يحتمل أن يؤول ويصرف عن هذا المعنى ويراد منه غيره، ومثل قوله ﷻ ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوَءٍ ﴾[2]، فيحتمل أن يراد بالقرء ثلاث أطهار أو ثلاث حيضات، على أن دلالته من جهة مصدريته وطريق نقله إلينا فهي قطعية)[3].

وغاية ما نريده هو تقرير هذه القاعدة (لا يوجد معقولٌ صريح يخالف المنقول الصحيح)[4].

من ثم كان لابد للعقل أن يسلِّم بحاكمية الوحي الإلهي وصدارته.

ولعلنا ندرك من هذا قيمة صدارة النص الإلهي بلفظه ومعناه (القرآن الكريم) أو بمعناه دون لفظه[5] (السنة الشريفة) لما يتحقق به من الكمال والعصمة، وما تتحقق به معانية ودلالته من الدقة والإحاطة والثبوت والقطع.

---

(١) سورة النساء جزء من الآية (١٢).

(٢) سورة البقرة جزء من الآية (٢٢٨).

(٣)علم أصول الفقه: أ/ عبد الوهاب خلاف (ص ٣٤، ٣٥) مرجع سابق بتصرف يسير. .

(٤)شمول النصوص لأحكام أفعال العباد لابن تيمية، تحقيق: صالح المهندس (ص١٢) مطبوعات وزارة الأوقاف بقطر، ط (١) ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م..

(٥) علم أصول الفقه. الأستاذ عبد الوهاب خلاف (ص ٢٢) مرجع سابق.

تأصيل القاعدة:

عندما نقرأ آي القرآن الكريم، ونتدبر معانيها، ونتفهم أوجه فصاحتها وبلاغتها، وسلامة ذوقها، ودقة أساليبها، نجدها تتحدث عن حتمية صدارة النص القرآني، وكذا حتمية صدارة الحديث الشريف لكن في مرتبة تالية لنص القرآن الكريم.

ومن الأدلة على ذلك قول الله تعالى:

١ ـ ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾[(١)].

٢ ـ ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[(٢)].

٣ ـ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[(٣)].

٤ ـ ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[(٤)].

٥ ـ ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾[(٥)].

٦ ـ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[(٦)].

٧ ـ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[(٧)].

٨ ـ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[(٨)].

---

(١) سورة الأنعام (٥٧).
(٢) سورة الممتحنة (١٠).
(٣) سورة المائدة (٥٠).
(٤) سورة المائدة (٤٨).
(٥) سورة المائدة (٤٩).
(٦) سورة المائدة (٤٤).
(٧) سورة المائدة (٤٥).
(٨) سورة المائدة (٤٧).

obeikandl.com

٩ ـ ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[١].

١٠ ـ ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾[٢].

١١ ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[٣].

١٢ ـ ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[٤].

١٣ ـ ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[٥].

١٤ ـ ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[٦].

١٥ ـ ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[٧].

١٦ ـ ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾[٨].

١٧ ـ ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ ﴾[٩].

١٨ ـ ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[١٠].

---

(١) سورة النساء (١١٣).
(٢) سورة يونس (١٠٩).
(٣) سورة الجمعة (٢).
(٤) سورة آل عمران (١٦٤).
(٥) سورة آل عمران (٣٢).
(٦) سورة آل عمران (١٣٢).
(٧) سورة النساء (٨٠).
(٨) سورة الأنفال (٢٠).
(٩) سورة الأنفال (٤٦).
(١٠) سورة المائدة (٩٢).

obeikandl.com

١٩ـ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[١].

٢٠ـ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢].

دلالات التأصيل في هذه الآيات:

عندما نتأمل هذه الآيات الكريمة نجد من شارات الدلالة ما يلي:

أولاً: القرآن الكريم كتاب نور وهداية:

بمعنى أنه جاء هاديًا للإنسان .. روحه وعقله .. نفسه وجسده.. دنياه وآخرته، وهو مخرج للناس من الظلمات بمفاهيمها المختلفة، ومقاييسها المتعددة، وصورها الضاربة في الضلال والغواية، وأسبابها الناشئة عن إعاقة العقل، وقلة التأمل والتدبر، وندرة التفكر والتعقل، مما دفع الناس إلى ترك الحق إلى الباطل، وعدم القناعة بمعطياته، واستبدال قضايا الوحي بفلسفات بشرية قاصرة، تستمد جذورها تارة من الوثنيات، وثانية من الماديات والطبيعيات، وثالثة من الإلحاد، فطمست بذلك معالم الحق، وأضلت كثيرًا من الخلق.

إنه إذن جاء لتزكية البشر بتعليمهم تعاليم الوحي الإلهي الهادي، إلى الحق، المنجي من الضلال والانحراف .. الضابط للتفكير والحس والوعي.

ثانيًا: القرآن الكريم فرقان بين الحق والباطل:

لذا سماه الوحي الإلهي فرقانًا، لأنه يفرق بين متناقضات الاعتقاد، ومتقابلات التفكير بصورها الإيجابية والسلبية، فهو الحد الفاصل بين الحق والباطل، والنور والظلمة[٣]، مما يجعل القرآن الكريم أهلاً للإنذار والبشارة والوعد والوعيد.

---

(١) سورة الفرقان (١).

(٢) سورة المائدة (١٦).

(٣) راجع: مقدمة التفسير لابن تيمية (١٦/ ٧) وما بعدها، دار الحرمين، بدون تاريخ. .

obeikandi.com

وقد وصفه الله تعالى بقوله ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[1].

ثالثًا: ضرورة الاحتكام إلى القرآن الكريم:

تأسيسًا على قيم كمال القرآن الكريم وإحاطته وعلمه وشموله، وعلى كونه فرقاناً بين الحق والباطل، والنور والظلمة، وعلى أنه لا يأتيه باطل، ولا يحوم حوله شك، وطالما أنه يمد الإنسان بمعارف دقيقة. وفي العقول لا توجد مقدمة بدون نتيجة .. وكل سبب له مسبب ومفضٍ أيضًا إلى نتيجة .. والعقل يجد من هذا ما يقنعه ويأنس به ويؤمن له.

وقد أتى القرآن الكريم في منهجه الدعوي الاستدلالي بهذه القاعدة على صور متعددة منها مايلي:

[أ] ربط الأسباب بالمسببات:

فكل مسبَّب لابد له من سبب، ولا ينكر هذا إلا جاهل مكابر، لأن العقول قاضية به .. منتهية إليه .. والأمور تصير بأسبابها، والكون قائم بأسبابه، ولا عبرة بمن شذ عن هذا.

التأصيل:

قال الله تعالى ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2].

وقال تعالى ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[3].

---

(١) سورة فصلت (٤٠، ٤١).

(٢) سورة المائدة (٣٨).

(٣) سورة البقرة (٢٢٥).

obeikandl.com

وقال تعالي ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾[1].

وقال تعالي ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴾[2].

وقال تعالي ﴿ لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾.[3]

﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾[4].

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾[5].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٖ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[6].

يقينية عن قضاياه الكبرى أو الصغرى، وطالما أنه يختزل عنصر الزمن والمكان، ويعجز القُوي والمدارك، ولأنه يحارب الظلم والجَور والفساد والفسوق، ويحارب الظلم الاجتماعي، ويعمل على تحقيق السلم والأمن الاجتماعيين.

طالما كان الأمر كذلك، وتأسيسًا على ما سبق، فمن البديهي ـ فضلاً عن كونه

---

(١) سورة البقرة (٢٨١).
(٢) سورة الأنعام (٧٠).
(٣) سورة إبراهيم (٥١، ٥٢).
(٤) سورة الروم (٤١).
(٥) سورة الشورى (٣٠).
(٦) سورة يونس (٢٧).

obeikandl.com

حكمًا شرعيًا ـ أن يحتكم الإنسان إليه في كل شئون حياته، لضبط مسيراته العقدية ومسيرته الذاتية، وضبط عمليات الاستدلال التي يقوم بها تاييدًا أو معارضة، إثباتًا أو نفيًا.

رابعًا: صدارة النص القرآني والحديث الشريف:

تأسيسًا على ما سبق بيانه ـ أيضًا ـ وطالما أن القرآن الكريم يتحقق بهذه الخصائص من حيث كماله المصدري والذاتي، ووجوب الاحتكام إليه، فإنه يجب أن يتحقق بالصدارة، وليس لكائن من كان أن ينال من صدارته ورتبته، فهو مصدر الإسلام الأصيل، وهو الذي أذن للسنة بأن تليه في الرتبة والصدارة، وأوجب على المسلمين ضرورة العمل بهما والاحتكام إليهما في المنازعات، وفض الخصومة والجدل.

فالاحتكام إليهما يعصم الذهن من الخطأ، ويقوي مدراك الإنسان، ويفتح عقله على آفاق أرحب من التفكير المنضبط، والإدراك الواعي، اللازمين لبناء استدلال راشد.

وعكس هذه القاعدة خطأ في المنهج وعكس للدليل، ولا يخفي ما في ذلك من خطورة على عملية الإدراك (فلا يجوز أن يجر القرآن جرًا، ليؤيد ـ رغم أنفه ـ مدرسة من مدارس الاعتقاد أو الفكر أو الفقه أو السلوك، فإن هذا قلب للحقائق، وتزييف للأمور، وتأخير لما حقه أن يقدم، وتقديم لما حقه أو يؤخر، فقد أمسى الحاكم محكومًا، والأصل فرعًا، والمتبوع تابعًا، وهذا من أكبر أسبَاب الضلال ومنازع الزيغ، ومصادر الانحراف عن سواء الصراط)[1].

ولا يخفي ما لهذا من خطورة على منهجية الاستدلال.

---

(١) المنهج الأمثل في التفسير: د/ يوسف القرضاوي، بحث نشر مجلة المسلم المعاصر (ص ٤١) العدد (٨٣)السنة (٢١) ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

obeikandl.com

المبحث الثاني

التعريفات

مما تميز به منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم، أنه راعي التعريف بما يُستدل عليه، وكذلك ما يستدل به. ويقصد بما يستدل عليه "المدعو إليه" وهو الدين الإسلامي. ويقصد بما يُستدل به الدليل الذي يستاق من الواقع تارة، ومن الأخبار تارة أخري، وبالقياس[1] تارة ثالثة.

وتأتي أهمية "**التعريف**" في موطن الاستدلال بالقضية ذات الصلة من حيث أنه يُراعي ضرورة إماطة اللثام عن مضامين القضية لتعطي صورة واضحة المعالم عنها في خطوة أولي للتعرف على الشئ من حيث الماهية والكينونة.

وهذا من لوازم عملية "الإقناع" و "الاقتناع" لأن الإنسان لا يقتنع إلا بما يعرف، ولا يعرف معرفة حقيقية إلا ما فهم، وليس كل ما فُهم يُقطع به إلا بيقين. وحيث أن الإقناع والاقتناع مفاعلة بين طرفين يريد أحدهما إقناع الآخر بشئ ما.

ومن المستحيل أن يتم شئ من ذلك بدون إدراك كامل ومعرفة تامة بطبيعة هذا الشئ لضمان إجراء هاتين العمليتين. وهذه قضية منطقية.

لذا نجد القرآن الكريم يركز على التعريفات لما لها من أهمية بالغة على هذا النحو، وإلا فلن يكون هناك اقتناع من أحد بأي من قضايا الدين.

---

(١)ويقصد بالقياس هنا قياس المعنويات المجردة بالمحسوسات لتقريب المعاني وأمثلة ذلك كثيرة في القرآن الكريم، منها قوله تعالي ﴿ **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** ﴾ سورة الأعراف (٢٩).

obeikandl.com

التعريف بالشئ لإقامة الحجة:

وترجع أهمية قاعدة **"التعريف"** إلى أنها بمثابة إقامة الحجة علي الخلق بعد سوق البراهين الواضحة، والحجج القاطعة لهم، إذْ لا عذر لمعتذر يجهل، ولا حجة لمحتج بعد توضيح مهايا الأشياء وبيان أحكامها، لذا كان التعريف بالشئ حجة على المنكرين والمعارضين، وإلزامًا للطائعين.

قال الله تعالي ﴿ **وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾[1].

وقال تعالي ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ** ﴾[2].

وقال تعالي ﴿ **فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ** ﴾[3].

وكان أولي بهم أن يؤمنوا به لأنهم يعرفونه، لكن إنكاره بعد معرفته صار أقوي الحجج على إدانتهم واستحقاقهم لعنة الله تعالى.

وكون الله تعالي يرينا الآيات لنعرفها، فليس لمجرد المعرفة بها، وإنما لإقامة الحجة علينا إن خالفنا أمره تعالي، وإلزامنا بالطاعة إن آمنا به تعالي وصدقناه سبحانه.

وينكر القرآن الكريم على المنكرين إنكارهم للرسول ﷺ لأنهم تنكروا له بعد معرفتهم به.﴿ **أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ** ﴾[4].

من ثم يبقي فهم الشئ ومعرفته ضرورة تفرض نفسها وبإلحاح على عملية الاستدلال لضمان نجاحها.

---

(١) سورة النمل (٩٣).
(٢) سورة البقرة (١٤٦، ١٤٧).
(٣) سورة البقرة (٨٩).
(٤) سورة المؤمنون (٢٣).

obeikandi.com

نماذج التعريفات

أولاً: التعريف بالمعبود الحق:

كان من الطبيعي وفقًا للسنن الإلهية في الكون أن يرسل الله تعالي رسولاً إلى البشر بدين يعرِّفهم بالإله المعبود بلغاتهم، ويتعبدهم بجوانب عقدية وتشريعية وأخلاقية[١] تستقيم بها رؤاهم، وتصوراتهم لطبيعة عبادته، وتصحيح عقيدتهم في الإله.

وقد بعث رسول الله محمد ﷺ في بيئة، بل في ظروف عالمية فسدت فيها تصورات الناس عن الإله، وانحرفت فيها عقيدتهم فيه حتى تشبعت بالوثنية في أحيان، واختلطت صفات الإله بصفات البشر في أحيان أخرى، فقد هبط فيها تصور الألوهية حتى أُنزل الإله فيها من عليائه إلى مكانة لا تليق، بل رفع فيها البشر وأنزل منزلة الإله في تخبط، واضمحلال فْهم، وسوء اعتقاد، كما كان الحال في النصرانية[٢].

وخلعت على الإله سبحانه أوصاف لا تليق به مثل البخل والأنانية، والندم، واللعب مع حواء، ومذاكرة التلمود مع الحاخامات والنزول إلى الأرض، والظهور للفساق والماجنين، ومخاطبتهم عن طريق الرؤي، ومجالسة الأنبياء والأكل معهم وكذا الاستراحة في مكان إقامتهم، كما كان الحال في اليهودية[٣].

إضافة إلى **"التعددية"** أو **"الإثنينية"** التي كانت سائدة في بعض الديانات القديمة، والتي ظلت منتشرة حتى زمن البعثة الشريفة، بل وما زالت بقاياها حتى الآن عند طائفة من البشر يدينون بالزرادشتية[٤].

---

(١) راجع في هذا بحث الإنسان والكون . د/ عبد المجيد النجار . نشر بمجلة المسلم المعاصر (ص ٢١) ع (٧٧) س (٢٠) ربيع الأول ١٤١٦هـ/ اغسطس ١٩٩٥م. .

(٢) راجع : الأسفار المقدسة في الأديان السابقة على الإسلام (ص ٢٦) نهضة مصر. .

(٣) الكتاب المقدس العهد القديم سفر التكوين إصحاح ١٨ فقرة (١) وما بعدها، وأنا جيل العهد الجديد.

(٤)تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي: د/ حسن إبراهيم حسن ١/ ٩٦ وما بعدها، مكتبة النهضة المصرية، ط (٧) ١٩٦٤م.

إلى جانب الانحرافات العقدية في جانب الإلهيات في ديانات أخرى كالمزدكية والمانوية، وبالإضافة إلى الوثنية التي وجدت طريقها إلى البيئة العربية حتى صُنع الإله من العجوى ليُعبد، ثم يؤكل وقت الجوع[1].

في ظل هذه التصورات العقدية الفاسدة والممارسات التعبدية المنحرفة كان لابد من تصحيح التصورات لاستقامة الاعتقاد، وتقويم الاعوجاج.

من ثم جاء القرآن الكريم ليركز على التعريف بالإله المعبود تعريفًا يتعلق بالذات وبالصفات لنفي التوهمات، ودفع هذه التصورات الفاسدة وبيان بطلانها.

[أ] التعريف بالذات الإلهية:

جاء تعريف القرآن الكيم بالذات الإلهية بأنها ذات غيبية مطلقة لا تقيد بقيود الزمان والمكان، ولا تخضع لقياس، فهي كل كامل يدرِك ولا يُدرَك .. يؤثِّر ولا يتأثر، ويؤكد التعريف بالذات الإلهية أن قمة العبادة أن تعبد ذاتًا غيبية لا تُرى.

فالله تعالي غيب مطلق، لكن آثاره واضحة نشاهدها في خلقه، نشاهدها في أسرار الكون الفسيح، كما نلمسها في أسرار النفس الإنسانية وجوانبها التي يكتنفها الغموض، وتحيط بها الأسرار من كل جانب.

قال الله تعالي﴿ **ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝١٠٢ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ**﴾[2]. (والتعبير بما يدل على اللطف لمناسبة ما لا يُدرك تأكيد للمعنى)[3].

فالله تعالي ذات لا تُرَك، لأنه كل كامل، وأنَّي لناقص أن يُدرك كاملاً؟! .. أنَّي لمحدود الإدراك أن يدرك كامل الإدراك؟!

---

(١)وقد قضى الرسول ﷺ على كل المظاهر الوثنية في البيئة العربية عام الفتح بتحطيم الأصنام حول الكعبة. تاريخ الإسلام للإمام الذهبى (١/ ٤٨٠) دار الغد العربي، ط (١) ١٩٩٦م.

(٢) سورة الأنعام (١٠٢، ١٠٣).

(٣) التحبير في علم التفسير للإمام السيوطي، تحقيق: د/ زهير عثمان (٢ ٤٨).

obeikandl.com

من ثم قال رسول الله ﷺ: "تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في ذاته الله فإنكم لن تقدروا قدره"[1].

وقد استدل الإمام محمد عبده بهذا الحديث الشريف على أن الله تعالي (لا تدرك كنهه العقول، ولا تحوم عليه الأوهام)[2].

فالتفكير في ذاته ممتنع على العقل البشري، ولذا كان البحث فيه يعد في نظره عبثًا ومهلكة، لأنه سعي إلى ما لا يدك.

يقول محمد عبده: "ومن الصفات ما جاء ذكره على لسان الشرع ولا يحيله العقل .. ولكن لا يهتدي إليه النظر وحده، ويجب الاعتقاد بأنه جل شأنه متصفًا بها اتباعًا لما قرره الشرع).

وشأن الإمام محمد عبده في هذا شأن ابن خلدون.

وكون ذات الله غيبية لا يبرر لنا عدم الاعتراف به، ولا يُعيينا ذلك عن عبادته سبحانه، فإن أدلة وجوده منصوبة في الكون من حولنا بل في ذواتنا، وإن كان الله تعالي لا يحتاج إلى دليل لإثبات وجوده، وإنما تنصب الأدلة لنا نحن المخلوقين الضعفاء العاجزين محدودي الإدراك لمعرفة أن عبادتنا ليست لإله وهمي، وإنما لأله متحقق بالوجود، وأنها لن تضيع سُدي.

ألا يكفينا أنه تعالي يرانا .. يخبرنا عما يدور بأنفسنا .. يدبر أمورنا .. يصيِّر الكون ويسيره من أجلنا .. يكشف لنا أسرار قدرته وآيات عظمته .. ويحيطنا برعايته.

إنه يرانا في ظلمة الليل البهيم .. يرى أعيننا وهي تتقلب في ظلام الليل نخالها تنظر إليه وهي لا تراه .. في خضوع وخشوع .. في تضرع وابتهال .. فكيف لا نعبده؟!

---

(١)ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/ ٣٧١) دار التراث بدون تاريخ، وقال رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب عن ابن عمر مرفوعًا..

(٢)منهج محمد عبده في دراسة العقيدة: د/ مني أبوزيد، بحث نشر بمجلة المسلم المعاصر (ص ١٤٠) السنة (٢٩) العدد (٧٥ـ٧٦) رجب ١٤١٦هـ/ فبراير ١٩٩٥م.

obeikandi.com

ولقد صدق القائل:

يا من يرى مد البعوض جناحه ... في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى عروق نياطها في نحرها ... والمخ في تلك العظام النُّحَّل
اغفر لعبد تائب من فرطاته ... ما كان منه في الزمان الأول

لقد أدرك قائل هذه الأبيات صدق العقيدة في ذات تتصف بهذه الصفات .. وفي نفس تحققت بمقام العبودية .. وأدركت قمة التعبد.

إنها ذات لا تلمس ولا تُمس فتكسر مثلما يحدث للأصنام !! حاشا لله .. قادرة لا تقهر فتؤكل مثلما تؤكل آلهة العجوى !! واحدة لا تنازع في ملكها فتعارض مثلما يحدث من صراع متوهم بين آلهة النور وآلهة الظرم، أو بين آلهة الخير وآلهة الشر .. غنية لا تفتقر .. كريمة لا تبخل .. ومريدة لا تندم .. وعالمة لا تجهل، مثلما وصف اليهود إلههم!!

تعالي الله عن ذلك علوًا كبيرًا .

الإله الخالق:

إنه تعالي ـ كما تنبئنا الآيات ـ (خلق كل شئ) ومن لوازم الخلق: العلم .. إذ لا خلق عن جهل، والإرادة .. إذ لا خلق بدون قصد، والقدرة .. إذا لا خلق عن عجز .. والإحاطة .. إذ لا خلق مع قصور أو تفريط.

وكل ما في الكون دق أو كبر .. عظُم أو صغر .. رُئي أو استتر حضر أو غاب .. شوهد أو لم يشاهد .. إنما هو من خلق الله تعالي.

ولقد صدق الله سبحانه إذ قال: ﴿ **أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** ﴾[1].

وهو تعالي ـ كما تنبئنا الآيات ـ (بكل شئ وكيل) وكيل بتدبيره وتصريف

(١)سورة النحل (١٧).

obeikandi.com

شئونه، وحفظه والعناية به[1] .. يسبب أسبابه ويقطعها. يبقيه إن أراد له البقاء، ويفنيه إن إراد له الفناء، ويجعله نعمة ويصيره نقمة .. يبقي فيه خواصه أو يسلبها، مثلما فعل بالنار إذا أُلقي فيها نبيه إبراهيم عليه السلام ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾[2]..

فسبحان القادر على السلب بعد العطاء، ومصير الأمر إلى طبيعته بعد السلب ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[3].

[ب] التعريف بالصفات:

كما عرف القرآن الكريم بذات الله تعالى عرف بصفاته، إذا لا يمكن فهم الذات بدون التعريف بالصفات .. وتأتي أهمية التعريف بالصفات لبيان متعلقات الذات الإلهية، ولضبط تصور الإنسان العابد لصفات الله تعالي المعبود، وحتي لا يخلط ولا يتوهم، ولا يخرص، فينسب ما ليس لله لله ، ويلحق ما هو من عوارض البشرية بالذات الإلهية، فيوقعه ذلك في التيه والحيرة، ولا يتأتى مع ذلك يقين.

وعدم اليقين يدفع إلى الشك والشك يدفع إلى الاعتراض والاعتراض يسلم إلى الكفر، وبذلك يفوت مقصد الرسالة، وهو الإقرار بالذات الإلهية وبصفاتها.

فصفات الله تعالي ليست كصفات غيره .. فهي تستمد قوتها من قوة الذات العلية .. إنها تتسم بالكمال المطلق، تتنزه عن كل نقص قال الله تعالي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[4].

والله تعالي بهذا يعرِّف بذاته وبصفاته، فينفي عنه المثْلية، إذ المثلية من صفات المخلوقات، والله تعالي لا أول لوجوده ولا انتهاء له، فهو خالق لا مخلوق سبحانه وتعالي .. قوي لا ضعيف .. غني لا فقير .. إنه كل لا يُجزَّأ .. وذات لا تُشبَّه، ولا يمكن أن تتجسد.. تعالي الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

---

(١)راجع : مفاتيح الغيب للإمام الرازي (١٣/ ٩٩) مرجع سابق.
(٢) سورة الأنبياء (٩٦)
(٣) سورة الأنبياء (٢٣).
(٤) سورة الشورى (١١).

obeikandl.com

أهمية التعريف بالذات والصفات للمدعو:

تأتي أهمية التعريف بالذات والصفات لضبط مسيرة الإنسان العقدية، ويقظته الإيمانية، واستقامته السلوكية، وترقبه للكمال الخلقي، وتحققه بخشية الله تعالى ومراقبته، والخوف من التقصير في حقه، والتفريط في جنبه، والخلود إلى الأرض، والركون إلى المادة، والاستغراق في الشهوات والملذات، والرضا بالمذلة والدعة.

إنه يأبي إلا العزة بالله، والانتصار له، والحفاظ على دينه، والتجرد للحق، ومحاربة الهوي، ومجانبة الباطل، والترفع عن الترهات والسفاسف، وكراهية الفساد والفسوق، والعودة إلى المعصية بعد التوبة، وإلى الضلال بعد الهداية.

إنه ينشط لتحقيق الإيمان بالتقرب إلى الله تعالى بطاعته، والأنس بقربه، الانشغال به عمن سواه.

وهذا يجعله في يقظة دائمة، ومراقبة مستمرة لما يصدر عنه من أفعال، وما يلفظ به من أقوال .. علم أن الله تعالى غنيًا فلم يتوجه إلى غيره بطلب، وأنه قويًا فلم يستعن إلا به، وأنه مطلعًا عليه، فلم يستتر منه، وأنه قادرًا عليه فاستكان له قلبه، وخشعت له جوارحه، وأنه ودودًا فأتنس به، وأنه عالمًا فتعبده بعلمه، وأنه عزيزًا فاستنصره، وأنه حيًا لا يموت فتوكل عليه.

وعلم أنه تعالى يتصف بالكمال فنزهه عن صفات الحوادث والعوارض والنقائص، وأنه واحدًا فاطمأن له قلبه، وأخلص له العبادة ولم يشرك به شيئًا، وأنه غفورًا رحيمًا .. عفوًا كريمًا .. فطمع في مغفرته ورحمته وعفوه، وأنه قويًا شديد العقاب فخاف عذابه، وتوقي عقابه، وألان له جانبه .. وعلم أن المصير إليه، وأنه لا منجي ولا ملجأ منه إلا إليه ففر إليه، ولم يلجأ إلى غيره، وتبرأ ممن سواه.

وعلم أن الله تعالى هو المدبر المقدر، فرضي بقضائه واطمأن لقدره، وأنه

يخرق الأسباب فطلب منه الكرامة تثبيتًا له، واستعاذ به من الاستدراج[1] والإهانة[2].

وعلم أنه تعالي سيعيده إلى الحياة بعد الموت للحساب فعمل لجنته واستعاذ من ناره.

وقس على ذلك علم العبد بباقي الصفات، وعلمه بقدر الذات العلية.

خطورة الجهل بالصفات الإلهية على المدعو:

لا مرية أن الجهل بالصفات الإلهية له خطورته على عملية الاستدلال فهو يدفع المرء إلى نسبة النقائص لله تعالي، وإلصاق ما لا يليق بذاته به، كما يدفعه إلى عدم تقدير الله تعالي حق قدره.

وهذا قادح في الإيمان مخرج من الملة ـ معاذ الله تعالي ـ ولعل هذا ما أوقع اليهود في مهاوى الاعتقاد إذ لم يقدروا الله تعالي حق قدره، ونسبوا إلى ذاته تعالي ما لا يليق به من الصفات.

وقد ذكر القرآن الكريم هذا في معرض الذم وبيان قبح مآل اليهود فقال تعالي ﴿ **وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾[3].

وذم قولهم "يد الله مغلولة" ولعنهم به، فقال تعالي ﴿ **وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ** ﴾[4].

كما ذم نسبتهم الغنى لأنفسهم والفقر إلى الله تعالي فقال تعالي ﴿ **لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ**

(١) الاستدراج: خرق العادة للعاصي استداجًا له إلى معصية الله لتناله العقوبة منه. .
(٢) الإهانة: خرق العادة لمدعي النبوة فتأتي على غير ما أخبر به إهانة له.
(٣) سورة الزمر (٦٧).
(٤)سورة المائدة (٦٤).

obeikandl.com

﴿حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1].

وجهل النصارى قدره فألهوا غيره وعبدوه من دونه تعالي وقالوا بالتثليث والتشبيه[2]، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك وأبطله، وذمهم عليه فقال تعالي:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[3].

﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[4].

ولقد جهل قدر الله تعالي من قبل هؤلاء وأولئك قوم نوح عليه السلام، وذكر القرآن الكريم ذلك وعابهم عليه فقال تعالي ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[5].

وثمة أمثلة أخرى ساقها القرآن الكريم تبين خطورة الجهل بصفات الله تعالي، كما تبين أن ذلك نقص في الاعتقاد يدفع إلى الكفر بالله تعالي والشرك به .. معاذ الله.

ثانيًا : التعريف بحقيقة التوكل:

عرف القرآن الكريم في معرض الاستدلال بحقيقة التوكل، فلم يقف عند حد الأخذ بالأسباب، وترك النتائج على الله فقط، وإنما عرف بحقيقته، وما يجب أن

---

(١) سورة آل عمران (١٨٠، ١٨١).

(٢) راجع تفنيد ذلك في الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم تحقيق د/ عبد الرحمن عميرة وآخرون. دار الجبل بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م (٢/ ١٩٣) وإغاثة اللهفان لابن قيم الجوزية (٢/ ٢١٠) وما بعدها، والمكتبة الثقافية، بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، وإظهار الحق لرحمت الله الهندي (٣/ ٦٨١) وما بعدها، تحقيق: د/ محمد ملكاوي، الرئاسة العامة لإدارت البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد. السعودية، ط (١) ١٤١٠هـ، والإعلام بما في دين النصارى من أوهام للقرطبي تحقيق د. أحمد حجازي السقا (١/ ٧١، ٧٧) دار التراث العربي بدون تاريخ، وراجع: إظهار الحق لرحمة الله الكيرانوي، تحقيق وإخراج عمر الدسوقي (٢/ ٢٥) وما بعدها. الشئون الدينية بقطر. بدون تاريخ. .

(٣) سورة المائدة (٧١).

(٤) سورة المائدة (٧٢).

(٥) سورة نوح (١٣).

obeikandi.com

يتوفر فيه من قضايا تمحِّص الإيمان، وتؤكد الثقة بالله تعالي رب العالمين، ومن هذا ما يلي.

١ـ بيان حتمية الثقة بالله تعالي، لأنها جوهر التوكل.

٣ـ عدم التدخل في النتائج حتمية التسليم المطلق لله تعالي فيها.

٤ـ التسليم بأن الله تعالي يتحقق بطلاقة القدرة وكمال التصريف في الأسباب والنتائج.

٥ـ بيان أن الله تعالي هو المتحقق بشروط التوكل وحده.

٦ـ بيان أن المتوكَّل عليه يجب ألا يكون من ذوات الأغيار، وأن يكون منزهًا عن هذا.

فالمتوكل عليه يجب أن يتحقق بالحياة والبقاء والديمومية، وأن يكون ذلك بيده، والله تعالي هو وحده المتحقق بهذا.

أما أن تكون حياته (أي المتوكل عليه) بيد غيره، فإنها عندئذ قد تصير مهددة بالانقطاع، وتتلاشي بانقطاعها الآمال، ويضعف الاعتقاد بها وتتلاشى الثقة فيها، مما يجعل الإنسان يقدم عليها في البداية بين خوف من موت المتوكل عليه وبين ضياع المرغوب فيه والمأمول لديه.

إلى جانب ذلك يجب أن يكون المتوكَّل عليه قادرًا على إنفاذ وعده، فلا يقاوَم ولا يعارَض ولا ينازَع، وألا يكون من ذوات الأغيار، فيتحول من الرضا إلى الغضب، مما يؤثر سلبًا على المأمول، فيضيع أمل المتوكل تحت وطأة الغضب. ويكون تحقيق مصلحته مرهنًا بمقدار ثبات المتوكل عليه على حالة واحدة، فضلاً عن أن المتكل عليه يجب أن يتحقق بالرحمة.

ومن مقتضى الرحمة تفويت المأمول على المتوكِّل، دفعًا لضرر قد يلحق به، كما يجب أن يكون عالمًا خبيرًا بطبيعة الأشياء وأسبابها، حتى يلبي للمتوكل سؤله وحاجته، ويجب أن يعتقد المتوكل اعتقادًا جازمًا أن الله تعالي لا يفعل به إلا الخير،

obeikandi.com

وقد يكون الخير في تفويت مصلحة ظاهرة لحكمة يعلمها هو، والله تعالي وحده هو المتحقق بهذا.

وهذا التعريف بحقيقة التوكل وما يجب أن يتحقق به المتوكَّل عليه وما يشترط في المتوكل يمحص قضية التوكل، ويملأ قلب المتوكل عزمًا على التسليم المطلق لله تعالي، وثقة كاملة في قادريته وقاهريته.

ودليل هذا قول الله تعالي:

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾[1].

وقال تعالي ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[2].

وقال تعالي ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[3].

وقال تعالي﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[4].

وقال تعالي ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾[5].

والمتأمل في هذه الآيات يجد أنها بينت حقيقة التوكل وحيثياته ومقتضياته، على نحو ما سبق بيانه.

---

(١) سورة الفرقان (٥٨، ٥٩).
(٢) سورة النساء (٨١).
(٣) سورة هود (١٢٣).
(٤) سورة الشعراء (٢١٧ـ ٢٢٠).
(٥) سورة النمل (٧٧، ٧٨).

أهمية التعريف بالتوكل للمدعو:

تأتي أهمية التعريف بالتوكل للمدعو من حيث أنها بينت له وجه العبادة الصحيح والكامل في عقيدة التوكل، وعرفته تعريفًا حقيقيًا كاملاً بالله سبحانه وتعالي .. فهو تعالي عزيز رحيم .. سميع عليم .. خبير بصير .. بيده مقاليد كل شئ .. متصرف في كل أمر .. منزه عن الأغيار.

وهـذا مما يمـلأ قلبـه صدقًا ويقينًا، وإيمانًا وعزمًا، ويحققـه بمقـام العبوديـة لله تعالي.

خطورة عدم التعريف بقضايا المدعو إليه:

تكمن خطورة عدم التعريف بقضايا المدعو إليه في أن عدم تعريف الداعي بموضوع دعوته يكون مدعـاة للبـس والغمـوض، ولا يخـفي ما لعـدم وضوح المعاني في ذهن المدعو من خطورة كائنة في إحجامه عن التعبد الصحيح، أو التخبط في الاعتقاد، والجهل بقضايا الدين، مـن ثـم لا يستقـيم في عبادتـه ولا يستقـر عـلى حال.

وعدم التعريف بحقيقة القضية وطبيعتها يؤثر سلبًا على العمل الدعوي، إذ يجعل الداعي في واد، والمدعو في واد آخر، خاصة أن التعريف بالشئ أولي شرائط الإيمان به، والتزام العمل بمقتضاه، وبهذا يفتقد الانسجام والتفاعل بين الداعي والمدعو .. إنه سيكون مشتت الأفكار، مندهشًا، مذهولاً، فاتر الحس، بطئ الاستجابة إن لم يكن منصرفًا عنها.

وهذا خطأ الداعي لا المدعو، لأنه خالف قاعدة أصيلة من قواعد المنهج الاستدلالي في نصب الأدلة على قضايا الدعوة، وهي قاعدة التعريفات، ولا يخفى ما لهذه القاعدة من أثر بالغ في العمل الدعوي، فوجودها شرط نجاحه، وغيابها مدعاة فشله.

من ثم نجد أن القرآن الكريم يراعي في معرض الاستدلال التعريف بجوانب

القضية وبيان طبيعتها، وثمراتها، وأحكامها، ونصب الأدلة على ذلك حتى تكون واضحة بينة في ذهن المدعو، فيقدم على عبادة الله تعالي عن علم ويقين وثقة.

وعلى الدعاة أن يلتزموا هذه القاعدة المنهجية في معرض الاستدلال على قضايا الدعوة، حتي يتحقق لهم نهوض فعلي بدعوتهم وارتقاء إلى مستوي العمل المنهجي الجاد.

obeikandl.com

المبحث الثالث

ترتيب النتائج على المقدمات

من روائع منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم ربط المقدمات بالنتائج ربطًا لا ينفصم، وترتيب الثانية على الأولى ترتيبًا لزوميًا، إذْ لا نتيجة بدون مقدمة، ولا مقدمة بدون نتيجة، فالأمور لا تأتي عفوية أو مصادفة، وإنما تأتي على نحو من التحري والبحث والتأمل والتدبر، والنظر في طبيعة القضايا المادية والمعنوية لاستخلاص المقدمات، وتلمس النتائج المنبثقة عنها.

هذا في جانب التفكير النظري، وكذلك الشأن في الجانب التطبيقي أو السلوكي، إذ نجد القرآن الكريم يؤكد في موطن نصب الأدلة إثبات هذه القضية على نحو من القطع واليقين، يقطع بالحقيقة، وينفي الظن والوهم والخرص.

ومن يتأمل القرآن الكريم يلمس تركيزه على هذه القاعدة المنهجية الدعوية الاستدلالية في سائر القضايا من حيث الإثبات والنفي والهدم والبناء .. وبيان طبيعة الأشياء ومهاياها .. ومبدئها ومآلها.. وأسباب بقائها وعوامل زوالها، ومظاهر ثباتها وفنائها.

تأصيل هذه القاعدة:

أولاً: ترتيب النتائج على المقدمات في جانب التفكير النظري وإثبات العقائد:

نجد القرآن الكريم في منهجة الدعوي الاستدلالي يثير أمام العقول في معرض إثباته قضية الوحدانية وإبطال التعددية أو الثنائية العقدية في مجال الإلهيات، نجده يثير قضية النتائج والمقدمات والأسباب والمسببات، ويؤكد من حيث المفهوم أن

سلامة النتائج من سلامة المقدمات، وأن المقدمة الصحيحة لا يترتب عليها ولا ينبثق عنها إلا نتيجة صحيحة، وأن العكس مستحيل وروده.

قال الله تعالى ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾[1].

دلالات التأصيل:

إذا تأملنا الآية الأولى نجد أنها تتحدث عن فساد عقدي يتمثل في **"التعددية الإلهية"** في نظر من اعتقدوها.. هذه التعددية مأخوذة من التعبير القرآني بصيغة الجمع.**﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾.**

وهذا الفساد العقدي ناشئ عن فساد التصور .. إنه نتيجة فاسدة لمقدمة فاسدة قامت على أساس التقليد لا على أساس النظر الصحيح، قامت على أساس إلغاء العقل ورفع شعار التبعية دون فحص ونقد لهذه "التبعية" المفروضة بيئيًا، والتي صارت موروثًا عقائديًا باليًا لآباء سابقين ضلوا في اعتقادهم، وتخبطوا في سعيهم .. إنهم عمدوا إلى تعطيل العقل، بل إقصائه عن ساحة الحكم، وعطلوا حواس إدراكهم فجاءت مدركاتهم على نحو ما جاءت به تلك المقدمات.

ولو أنهم نظروا بروية وتؤدة، وتأملوا في ملكوت السماوات والأرض، وفكروا برجاحة عقل بعيدًا عن التحم، واتباع الهوى، وتعطيل الحواس، لأيقنوا خطأ نتائجهم المتمثلة في "التعددية الإلهية" وأيقنوا خطأ المقدمات التي آلت بهم إلى هذا المآل الآسن.

ولكن ما هي مقدماتهم تلك؟!

إنها كما يبدو مما سبق تحكيم الموروث البيئي، والخضوع للتقليد العقدي، وهكذا تصوروا الدين، وتصوروا آلهتهم.

---

(١) سورة الأنبياء (٢١: ٢٣).

obeikandi.com

ويأتي القرآن الكريم ليثبت لهم خطأ مقدماتهم بطريقة تثير التفكير، وتدعو إلى التأمل والنظر، وتعرية العقل عن حجبه التي أعمته عن رؤية الحقيقة في صورة مقدمتين صحيحتين، ونتيجتين صادقتين: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ :

فالمقدمة الأولي هي :

"إن تعددية الآلهة سبب لفساد السموات والأرض، وإبطال النظام، وذلك لإمكانية المعارضة والتنازع بين الآلهة، إذ أنه إذا أراد أحد الآلهة فعل شئ أراد الآخر إبطاله أو معارضته، ولو أراد إحداث خلافة لبطل لإمكان معارضته أيضًا، فيلزم الدور والتسلسل، وهذا محال على الله تعالي".

والمقدمة الثانية: "إن السماوات والأرض موجودتان لم ينكرهما عاقل وباقيتان صالحتان لم تفسدا"[(١)].

وهاتان المقدمتان وغيرهما من المقدمات التي نصبتها أدلة القرآن الكريم (مقدمات قائمة على مخاطبة الفطرة، والحس والعقل والجدل والإعجاز) [(٢)] بحيث لا يجد المنصف حيالها مناصًا من التسليم بقطعياتها، وإفادتها اليقين والجزم.

ذلك أنه (من المقررات الأساسية فيما يتعلق بالبرهان أو الدليل في القرآن الكريم: أن قيمته كامنة في إعطاء الاطمئنان وزيادة اليقين الإيماني، وبالتالي تزيد الموقن يقينًا على يقينه، وتزيل الشبهة، كذلك فإن مسألة البرهان اليقيني مسألة موضوعية لها علاقة بالدليل أي أنها تدور مع الدليل وجودًا وعدمًا، لأن اليقين هو الأساس الذي قام عليه البرهان القرآني، قال تعالي ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [(٣)].)[(٤)].

---

(١) مفاتيح الغيب للإمام الرازي (٢٢/ ١٣٠) مرجع سابق. والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٥/ ٤٤٤١) دار الغد العربي ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

(٢) أسس اليقين بين الفكر الديني والفلسفي: د/ يوسف محمود محمد (ص ٢٥٧) دار الحكمة. قطر. الدوحة، ط (١) ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

(٣) سورة الأنعام (٧٥).

(٤)أسس اليقين: د/ يوسف محمود (ص ١٩٤) مرجع سابق.

obeikandl.com

والنتيجة الصادقة لهاتين المقدمتين ثبوت وحدانية الله تعالي لما يلي:

١ ـ أنه تعالي لم يعارض ولم ينازع في ملكه، ولم يبطل مراده، ولم يخرج حتى الآن من يدعي ذلك، ولن يحدث إلى يوم القيامة.

٢ ـ أن فعله تعالي نفذ، ومراده تم من خلق السماوات والأرض وما فيهما، فدل ذلك على أنه واحد.

ومن أدلة التأصيل لهذه القاعدة المنهجية قول الله تعالي:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[1].

تأملات في الآيتين الكريمتين:

إذا تأملنا هاتين الآيتين ألفينا ما يلي:

١ـ جاءت أولاهما لتعجز المشركين، وتبين لهم بأسلوب واقعي وبطريق عقلي يثير العقل ويدفعه إلى التأمل والتدبر والتفكير في القضية المثارة .. وتضع أمامه مقدمات ضمنية تفهم من منطوق السياق.

من يُعبد بحق يجب أن يكون خالقًا متفردًا بالخلق لا شريك له فيه، وهذا برهان واضح من براهين الوحداينة، فماذا خلقت هذه الآلهة التي تعبد من دون الله؟!

ماذا خلقت من الأرض التي هم عليها؟!

أم لهم شرك في خلق سماوات لم يستطيعوا الارتقاء إليها؟

ولو فُرض جدلاً أن لهم كتابًا يتبينون منه ذلك، فلن يكون إلا من عند الله تعالي الواحد، لكن شيئًا من ذلك لم يرسل إليهم، وذلك على سبيل التهكم والسخرية،

(١) سورةفاطر (٤٠، ٤١).

لمخالفته النظر الصحيح، والعقل السليم، والمنطق الواضح، والبرهان القاطع، والحجة البالغة.

١ـ المقدمات والنتائج المستنبطة من هذه الآية:

أ ـ إن الذي يخلق من العدم هو المتحقق بالإلهية.

ب ـ ثبت عدم قدرة آلهتكم وعجزها عن الخلق.

ج ـ وثبت قدرة الله تعالي على ذلك وتحققه به وتدبيره.

والنتيجة لذلك: بطلان ما تعبدون، ونفي ما تشركون به، وإثبات وحدانية الله تعالي.

٢ـ وتأتي الآية الثانية لتنصب أمام العقل مقدمات ونتيجة يحقق الواقع صدقها وصحتها.

أ ـ السموات والآض باقيتان متزنتان لم تزولا.

ب ـ وهي مفتقرة في إمساكها إلى إله قوي قادر مدبر مريد مختار عليم، ولا يستطيع ذلك غير الله تعالى.

ج ـ وإن تلاشت حالة اتزانهما وثباتهما وزالتا فلن يقدر علي إمساكهما أحد من بعده.

والنتيجة: أن القادر على حفظ السموات والأرض من الزوال هو الله تعالي، ولم يقدر على ذلك غيره، فهو إذن المتحقق بالألوهية المتصف بكمال الربوبية، المتفرد بالواحدانية، المتصف بطلاقة القدرة والعناية الربانية.

وما أروع القرآن الكريم وهو يقرر هذه القاعدة في منهجه الدعوي الاستدلالي، والأدلة على ذلك كثيرة لا نستطيع إحصاءها كلها في هذا البحث، لذا نكتفي منها بهذا.

ثانيًا: ترتيب النتائج على المقدمات في الجانب العملي والسلوكي:

كما ركز القرآن الكريم في منهجه الدعوي الاستدلالي على ترتيب النتائج على المقدمات، نجده يركز ـ أيضًا ـ على هذا الترتيب في جانب التطبيق والسلوك لضبط

obeikandl.com

الإيمان، وإصلاح مسيرة الأخلاق، معتمدًا على إقناع العقل بهذا .. إذ كل مقدمة لها نتيجة .. ولا توجد نتيجة بدون مقدمة قال تعالى ﴿ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾[1].

وقال تعالى ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾[2].

وقال تعالى ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[3].

وقال تعالى ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن تَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾[4].

وقال تعالى ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴾[5].

دلالات التأصيل:

لا مرية أننا إذا تأملنا هذه الآيات الكريمة نجدها بينة واضحة الدلالة في ربط الأسباب بالمسببات في جانب العمل والتطبيق السلوكي للقيم الأخلاقية والدينية، وذلك لما يلي:

١ ـ إن كل نفس أحسنت فمصيرها حسن، وكل نفس أساءت فمصيرها سيء.

٢ ـ إن الإنسان يجازي بعمله، ويؤاخذ بما كسب.

٣ ـ لم يصب إنسان بمصيبة إلا بما قدمت يداه.

٤ ـ ظهور الفساد في البر والبحر إنما كان بسبب ما كسبت أيدي الناس.

---

(١) سورة الأعراف (٣٩).

(٢) سورة يونس (٥٢).

(٣) سورة فصلت(١٧).

(٤) سورة االكهف (٥٨).

(٥) سورة فاطر (٤٥).

openkanar.com

٥ ـ الذين يكسبون السيئات يأتون يوم القيامة وكأن وجوههم قطعًا من الليل مظلمة!!!

٦ ـ إن الأقوام السابقون أهلكوا بالإبادة والاستئصال بسبب ما قدمت أيديهم وما كسبوا من معصية الله تعالي ومعارضة دينه والاستكبار على رسله، بل وإيذائهم وتعذيبهم.

٧ ـ إن الحدود مسببة بأسباب لا يطالب بتطبيقها إلا على من تحقق بواحد من أسبابها.

ولعله من خلال هذا تتضح صورة ترتيب المقدمات على النتائج بربط الأسباب بالمسببات.

[ب] ربط الجزاء بالشرط:

كما أتت قاعدة "ترتيب النتائج على المقدمات" في صورة ربط الأسباب بالمسببات، تأتي هنا في صورة الشرط والجزاء، فبينهما من الترابط ما لا يمكن فصله، إذ الجزاء مترتب على الشرط، والشرط سبب لحصول الجزاء.

فإذا وجد الشرط وجد الجزاء، ولا جزاء في صيغة الشرط بدون شرط.

فمن يعمل صالحًا لا يجد إلا ثمرة صالحة.

ومن يزرع الشوك لا يجني الورود.

ومن يزرع الحقد لا يجني حب الآخرين.

ومن يغرس حب الذات لا يجد من يضحي من أجله.

ومن تقرب إلى الله تعالي لا يجني شقاء البعد عنه.

وأنت تقول موجهًا: إن فعلت كذا نلت كذا، إن أطعتني أطعتك إن خالفتني خالفتك .. وتقول لولدك وطلابك: إن ذاكرتم نجحتم، وإن لم تذاكروا لن تنجحوا .. من أطاع الله دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، وهكذا.

إنه ربط منطقي وتقرير عقلي، فمن رضي بالشرط تحمل الجزاء، لأنه يعلم سلفًا أنه متحمل نتيجته، ومسئول عما قطع مع غيره من عهد.

obeikandl.com

والشرط والجزاء صورة من صور قطع العهد وإنجاز الوعد، وتحديد الموقف، و تمحيص الهوية الإيمانية، ونجده عند التحقيق متضمنًا معنى الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والبشارة والإنذار ومن شأنه أنه يحمل الإنسان على الجد والاجتهاد في العمل والطاعة العبادة.

والمتبرم من الشرط والجزاء بعد قطعه، والمعترض عليه في حسن جانبه، إما غافل أو مغرض أو صاحب هوى.

ويأتي الجزاء أثرًا مباشرًا للشرط على وجه اللزوم لا على وجه الاحتمال، فالإنسان ملزم بما وافق عليه أو قطعه من شرط، ويحمل على الوفاء به إن تقاعس عنه.

ويؤكد قيمة الشرط والجزاء اللزومية ما روي عن الرسول ﷺ: (المسلمون عند شروطهم إلا شرطًا حرم حلالاً أو أحل حرامًا) [1] أي ملزمون بما قطعوه على أنفسهم.

حدود الشرط والجزاء:

الشرط والجزاء لم يكن قيمة مطلقة بدون ضابط في مجال الإلزام والالتزام، وإنما هو قيمة مقيدة بالاستطاعة والقدرة على إنجاز الشرط وتحقيق الجزاء، إلى جانب أنه مقيد بألا يخرج عن دائرة الحلال ويخترق دائرة الحرام، وهذا ما يبدو مما سبق "إلا شرطًا أحل حرامًا أو حرم حلالاً".

إطلاقات الشرط والجزاء في القرآن الكريم:

جاءت إطلاقات الشرط والجزاء في منهج الاستدلال من حيث إقامة الحجة من الله تعالي على الخلق في صورتين:

أولاهما: ما يتضمن معنى الخير والثواب.

ثانيتهما: ما يتضمن معنى الشر والعقاب.

---

(١) سنن الدراقطنى (٢/ ٢١) كتاب البيوع، حديث رقم (٢٨٦٩) دار الفكر، ط ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

obeikandl.com

أولاً: ما يتضمن من الشرط والجزاء معنى الخير والثواب:

في موطن إقامة الحجة ونصب الدلالة على عدالة القضية، والقطع بوفاء الله تعالى بما قطع على نفسه مع عبيده من شرط وجزاء ـ ولا يجب عليه تعالي شئ ـ من إثابة الطائعين، والتوبة على التائبين وقبول رجاء العبد، وتضرعاته إليه تعالي في خلواته وجلواته .. في سره وعلانيته .. وسواء أكان مستخف بالليل أو سارب بالنهار.

وفي هذا يقول الله تعالي:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾[1].

ويقول الله تعالي ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[2].

ويقول تعالي ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾[3].

ويقول تعالي ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾[4].

ويقول سبحانه﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[5].

---

(١) سورة النساء (١٢٤).
(٢) سورة الكهف (١١٠).
(٣) سورة الأنبياء (١١٢).
(٤) سورة الأنبياء (٩٤).
(٥) سورة التغابن (٩).

obeikandl.com

ثانيًا: ما يتضمن من الشرط والجزاء معنى الشر والعقاب:

مثلما يقال فيما يتضمن من الشرط والجزاء معنى الخير والثواب يقال هنا في نقيضه مع التفريق بين طبيعة الخير والشر والثواب والعقاب. ومن حيث عرض الاستدلال علي عدالة القضية الإلهية في ترتيب النتائج على المقدمات في صورة الشرط والجزاء.

ودليل ذلك قول الله تعالي:

﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[1].

وقال تعالي ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[2].

وقال تعالي ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[3].

وقال تعالي ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[4].

وقال تعالي ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[5].

وقال تعالي ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾.[6]

تأملات في الآيات الكريمة:

لا مرية أن لالة ألآيات الكريمة على ورود المقدمات والنتائج في صورة الشرط والجزاء في معرض الاستدلال على العدل الإلهي واضحة وضوحًا لا خفاء فيه، وبينة بيانًا لا لبس فيه.

---

(١) سورة النساء (١٢٣).
(٢) سورة الزلزلة (٨).
(٣) سورة الأنعام (٨٨).
(٤) سورة البقرة (١٠٨).
(٥) سورة النساء (١١٦).
(٦) سورة النساء (١٣٦).

obeikandi.com

فمن يعمل الخير لن يحصد غير الخير .. ومن يعمل الشر لا يحصد غيره .. ومن ضل فإنما يضل على نفسه، ومن عمى فعليها .. من يؤمن يجازَى خيرًا ومن يكفر يُجازَي شرًا .. ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[1].

ونتيجة العمل مسئولية فردية لا جماعية.

هذه قضية عادلة، وليس من العدل أن ينتظر المسيء الثواب، ولا المحسن العقاب، ولا أن يدخل المؤمن النار ولا الكافر الجنة.

ـ نسأل الله تعالي الجنة ونعيمها، ونعوذ به من رؤية النار وعذابها ـ

(وعدم تطبيق هذه القاعدة يؤدي إلى اختلال ميزان الثواب والعقاب على من أحس أو على من أساء .. وهذا ما يضيع كل شئ .. فبدلاً من أن نعطي المحسن .. نعطي المنافق والمرائي .. والذي يغضب الله ليرضيك .. والذي يزيف أو يزورِّ من أجلك .. لقد أخذ الإنسان مبدأ وضعه الله سبحانه وتعالي بالإحسان إلى المحسن .. فأفسده بسوء تطبيقه)[2].

فخرق هذه القاعدة إذن إفساد في الأرض، لأنها تغاير شرطية المقدمة للنتيجة.. السبب للمسبِّب، ويترتب عليها في معرض الاستدلال قلب حقائق الأشياء، وتغيير خصائصها وسماتها، وهذا عبث محض يجب أن يتنزه عنه الأسوياء.

ترتيب النتائج على المقدمات قاعدة شرعية:

ويتضح من خلال ما سبق سوقه من آيات كريمات في قضايا الإثبات والنفي في مجال العقائد، وفي ربط الأسباب بالمسببات، والشرط بالجزاء، أن لله تعالي جعل ترتيب النتائج على المقدمات قاعدة شرعية بحيث لا يدخل الجنة إلا من يستحقها ويعمل لها، ولا يدخل النار إلا من قصَّر أو فرط في جنب الله تعالي ـ معاذ الله.

---

(١) سورة المدثر (٤١).

(٢) القصص القرآني في سورة الكهف: فضيلة الشيخ محمد متولي الشعرواي (ص ٨٢) طبعة أخبار اليوم. .

obeikandl.com

وعمل العبد مقدمات يترتب عليها نتائج، فالعبد إن صلح صلح عمله، وإن فسد فسد، ولا معني للثواب ولا للعقاب بدون عمل، وقعود الإنسان عن العمل الصالح غير وارد شرعًا، لأنه مكلف، وهو مقدمة للفلاح وسبب للنجاة، فمن أراد الفلاح فليعمل على رضوان الله، وليهتدي بهداه، وليستقم ابتغاء مرضاته تعالى، وهذا مطمعنا وما نؤمِّل، والله تعالي الهادي إلى سواء السبيل.

ترتيب النائج على المقدمات مبدأ عقلي:

لعله اتضح مما سبق أن ترتيب النتائج على المقدمات، والشرط على الجزاء وربط الأسباب بالمسببات قسمة عقلية تقتضيها العقول السليمة، وهي إلى جانب كونها قاعدة شرعية مبدأ عقلي، إذْ أنها معطيات عقلية محسومة أجمعت العقول على صدقها، بحيث لا تقبل النزاع ولا الجدل، كما لا يرتاب أحد في أن الإنسان **"كائن مفكر"**، وطالما أنه يفكر إذن فله عقل، وهذا استدلال بالأثر على المؤثر أو المصدر، إذا استدللنا بالتفكير على وجود العقل، لأنه أثر من آثاره، بل إنه منبثق عنه، وهذه مقدمات ونتائج أو مبادئ أقرت العقول السليمة حقيقتها، ذلك أن من قواعد المنهج القرآني في الإثبات (الانطلاق من المقدمات الأولية في العملية البرهانية بأمور مؤيدة مع مراعاة العلم والبعد عن الظن والجهل **﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾**[1].)[2].

وهذا المبدأ العقلي هو المحرك للإنسان للالتزام بقضايا الشرع وتصديق الأنبياء والرسل والدعاة الراشدين.

من ثم (جاء الوحي على أيدي المعصومين الصادقين من الأنبياء ليمد العقل الإنساني بالمدركات في علاقات الكون وموضع الإنسان منها، ومهمة وجوده تجاهها، وقواعد علاقاته الإنسانية والاجتماعية الأساسية اللازمة لترشيد سعيه، وتحقيق غاية وجوده)[3].

---

(١) سورة الإسراء (٣٦).

(٢) أسس اليقين: د/ يوسف محمود (ص ٢٠٩) مرجع سابق، والقصص القرآني في سورة الكهف. فضيلة الشيخ محمد متولي الشعرواي (ص ٦١) مرجع سابق. .

(٣)اسلامية المعرفة. المبادئ العامة. خطة العمل .. الإنجازات (ص ١١٣، ١١٤) مرجع سابق.

obeikandl.com

خرق الله تعالي للأسباب وصرفه للنتائج لا ينقض القاعدة:

قد يلتمس الإنسان المقدمات، ويجِدُّ في إحكام نتائجها، لكن الله تعالي قد يحول بينه وبين ذلك، أو يعطل ظهور النتائج على وفق الترتيب السابق.

كما أن الإنسان قد يلتمس من الأسباب أقواها، لكن الله تعالي قد يعطل تلك الأسباب، فلا يصل الإنسان بها إلى شئ من مراده. وقد يخرق الله تعالي ما اعتاده الناس وأَلِفوه، فتأتي النتائج لبعض ممن أراد الله بدون مقدمات على غير العادة، أو تأتي المسبّبات بلا سبب يلتمسه الإنسان.

ومما يجب مراعاته في عملية الاستدلال أن هذا لا يعني نقض قاعدة ترتيب النتائج على المقدمات، وربط الأسباب بالمسببات، والشرط بالجزاء، وإنما يعني ترسيخ اعتقاد من يباشر الأسباب والمقدمات، ويعقد الشروط بأن الله تعالي هو المدبر وهو المسير، إن شاء أمضي الأسباب وإن شاء عطلها، وإن شاء خرقها وإن شاء أنفذ المقدمات وأجرى النتائج، وليس على الإنسان إلا أن يعقد الأسباب، وينشئ المقدمات، ثم يترك النتائج لله سبحانه وتعالي.

وفي ذلك غايات منها ما يلي:

الغاية الأولي: إثبات طلاقة القدرة الإلهية والقاهرية لأسباب الأشياء والهيمنة على مقدرات الأمور، ليتفرد سبحانه وتعالي بها لا يشاركه في ذلك شريك، ولا ينازعه فيها أحد.

الغاية الثانية: إثبات عجز المخلوق، وافتقاره الدائم إلى تلك القدرة التي تدبر له أموره وتصرِّف له شئونه، ليستشعر برد الإيمان ويأنس بالطمأنينة، وينعَم بذلك النعيم، فيقِّوم حاله، ويصِلحُ شأنه، وينشط لعبادة ربه خالقه وبارئه ومولاه.

الغاية الثالثة: تأييد الأنبياء بالمعجزات.

الغاية الرابعة: ابتلاء الخلق، وتمحيص إيمانهم.

ولهاتين الغايتين جاء القرآن الكريم في معرض الاستدلال بنماذج من خرق الأسباب، وقلب مهايا الأشياء، وتغيير طبائع الأمور، ترى فيها النتائج مجراة، والمقدمات معطلة، وترى المسبَّبات قد أتت على غير مراد المسبَّب، ويتغير ما يوقَن أنه شر إلى محضِ خير.

فذلك آدم عليه السلام يُخلق بلا أب ولا أم !! وتُخلق منه حواء !! وذلك عيسى عليه السلام يأتي من أم بلا أب !! وناقة صالح عليه السلام تأتيهم وفيها من الآيات ما يعجزون عن الإتيان بمثلها !! وتلك النار التي ألقي فيها نبي الله إبراهيم عليه السلام ليحرق بها، فإذا هي برد وسلام عليه !! إنه يتمتع فيها بالنعيم مؤتنسًا بربه، ومطمئنًا له !! ومن رموه يتلذذون بما يتوهمونه به من إحراق وتعذيب واستئصال .. وقد نُجي بأمر الله .. وتلك سكين إبراهيم التي أراد بها أن يذبح ولده إسماعيل عليه السلام، تحقيقًا لرؤيا أراه الله تعالى إياها، فإذا بها تُسلب منها خاصية الذبح أو تُعطل عن أداء وظيفتها !! وذلك حدث الإسراء والمعراج الذي وقع لرسول الله ﷺ خرقًا لكل القوانين والنواميس الطبيعية، وما جرت عليه الأعراف، وما قطعت بضرورته العقول !!

وغير ذلك كثير نكتفي بالإشارة إليه بهذه النماذج.

وليخبرنا من يقول بحتمية ترتيب النتائج على المقدمات، ومن يري حتمية ربط الأسباب بالمسببات على وجه الإطلاق، لماذا لم تحرق النار إبراهيم عليه السلام؟! وكيف خلق آدم عليه السلام من تراب؟! بل كيف جاء عيسي عليه السلام بدون أب؟! ولماذا لم يذبح السكين إسماعيل عليه السلام؟!

بل كيف نجا الرسول ﷺ من الإبادة بالمادة المضادة في الفضاء أثناء عروجه إلى السموات العلا وفقًا لمعطيات العلم الحديث، حيث اكتشف العلماء هذه المادة في أماكن محددة في الفضاء يستحيل معها نفاذ أي جسم إلى ما وراء ذلك[1] ؟!!!

---

(١) الكون والإعجاز العلمي للقرآن : د/ منصور حسب النبي (ص ٢١٤) دار الفكر العربي، ط (٢) ١٩٩١م.

أين المقدمات والأسباب من هذا؟!

لم يصح إلا القول بأن الله تعالى تفرد لنفسه بذلك بحيث لا يجري في الكون إلا مراده تعالى، ولا يركن الإنسان إلى الأسباب ويتناسى المسبَّب الحقيقي لها وهو الله تعالى، ولا يقطع بحتمية النتائج فيأخذه الغرور.

إنه يجب عليه أن يكون في رجاء دائم في الله تعالى .. في توكل كامل عليه سبحانه .. في تسليم مطلق لتقدير ربه وتدبيره، وليعلم أنه ليس له في نفسه شئ، لكن هذا لا يعني التواكل والاستكانة، وإنما يعني مباشرة الأسباب وترك النتائج على الله تعالى، وإنشاء المقدمات والتضرع إلى الله تعالى بأن تأتي النتائج على وفق المقدمات لا تتخلف عنها.

والله تعالى يقول:

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[1].

وقال تعالى ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

إضافة إلى ما سبق فهذا يثبت أمرين:

١ ـ طلاقة القدرة الإلهية.

٢ـ ألا يعتمد الإنسان على عمله، ولا يركن إلى الأسباب من دون الله تعالى.

(فالإنسان السطحيُّ هو الذي يقف عند الأسباب، أما المتعمق فهو الذي يقف عند المسبِّب .. لأنك لو ادعيت أنك قادر على الإتيان بالنتائج .. نقول لك حافظ عليها بأسبابك .. وهذا يدلنا على أن المؤمن ينظر إلى حقائق العطاء ولا ينظر إلى

---

(١) سورة الشورى (٤٩، ٥٠).

(٢) سورة المائدة (٤٠).

obeikandl.com

ذات العطاء .. لأنه قد يكون في المنع عطاء .. ويكون المنع أثمن من النعمة ذاتها .. أنت تظن أنه لم يعطك، لكنه في الحقيقة بهذا المنع أعطاك)[1].

يبقي القول: إن هذا الخرق للأسباب وتعطيل المقدمات، أو إبطال النتائج لا ينقض هذه القاعدة الاستدلالية وهي قاعدة "ترتيب المقدمات على النتائج" ، أ "ربط الأسباب بالمسببات" بل يرجع إلى ما بيناه سلفًا.

أهمية قاعدة ترتيب النتائج على المقدمات:

تكمن أهمية ترتيب النتائج على المقدمات وربط الأسباب بالمسببات والشرط بالجزاء في موطن الاستدلال فيما يلي:

[١] بيان واقعية الدين الإسلامي للمدعو ومدي تقديره للعقل ومقتضيات الحكمة الناشئة من التأمل الدقيق، والنظر الثاقب، والعين الباصرة، فلا شئ من تكاليفه فوق مقتضيات الطاقة، إذا لم يُكلف العقول بإدراك ما لا تستطيعه، أو فهم ما تعيا عن فهمه، كما لم يكلف النفس بما لا يطيق أداءه.

[٢] أن ينشط المدعو للعمل والعبادة ويبلغ من الاجتهاد طاقته أخذًا بالأسباب، وترتيبًا للنتائج على المقدمات حتى يستقيم أمره، ويبلغ رشده، ويبحث عن طبيعة ومهايا الأشياء حتى يقف على آيات الله تعالي فيها، فينفع نفسه والناس، ويعمر الكون بالعمل الصالح.

[٣] الارتقاء بالمدعو من درجة الفرض إلى درجة الحقيقة، ومن دائرة الشك إلى دائرة اليقين، ومن الظن إلى العلم، ومن الرفض إلى القبول، ومن الإنكار إلى الإثبات، ومن الرد إلى الأخذ.

---

(١) القصص القرآني في سورة الكهف. فضيلة الشيخ الشعراوي (ص ٤١) مرجع سابق.

obeikandl.com

المبحث الرابع

ترتيب الأحكام على الأدلة

كما هو ثابت في مقتضيات العقول، ومبادئ التفكير الرشيد، والنظر السديد أن النتائج مرتبة على المقدمات، والمسببات على الأسباب، والجزاء على الشرط، فكذلك الأحكام مرتبة ـ طبقًا لهذه القيم العقلية ـ على الأدلة، فلا حكم بدون دليل أو برهان أو حجة، وإلا صار الحكم مجرد دعوي لا سند لها ولا مصداقية، ويبقي الحكم أسير الادعاء إلى أن يثبت حقيقته بنصب الأدلة، أو يصير محل شك إلى أن تثبت يقينيته.

والإنسان في قضية "الاستدلال" مخاطب شرعًا وعقلاً بنصب الألة على دعواه، وإلا اختلطت الحقائق بالأوهام، والعلم بالظن، والحق بالباطل، والاعتقاد الصحيح بالاعتقاد الفاسد، والتشريع المعصوم بالقانون الموضوع، وقضايا الوحي بنتاج العقل.

وتنقطع بذلك سبل الهداية على الخلق، وتطمس معالم الأشياء وتتلاشي قيم الحق والصدق والعدل، وتُعمَّي الحقيقة عن باحثيها، والنتيجة عن طالبيها، والحكمة عن ناشديها.

ولعل هذه العلاقة الوثيقة بين الدليل والحكم ـ في منهجية الاستدلال والتي لا يمكن أن تنفصم عراها ـ هي التي حددت مفهوم "الفقه" في اصطلاح الأصوليين والفقهاء، بالإضافة إلى المثقفين والمفكرين، وعلماء الأمة من المحدِّثين والمفسرين والمتكلمين.

فمصطلح "الفقه" في المنظور الإسلامي يعني (معرفة الأحكام الشرعية العملية

المكتسبة من أدلتها التفصيلية، والفقيه هو المجتهد، والممتلك لهذه المعرفة بالأحكام الشرعية كافة. وتتوقف هذه المعرفة على تضلع في اللغة العربية، وفي نصوص الأحكام في القرآن الكريم والسنة النبوية، مع القدرة العقلية والبراعة الذهنية في الوصول إلى المراد منها)[1].

وقصر مفهوم الفقه هنا على انتزاع الأحكام من أدلتها فقط تقييد لدائرته، وتضييق لمفهومه، لكننا إن تأملنا آيات القرآن الكريم وإطلاقاته لمادة (ف ق هـ) (سنجدها تتكرر في آيات عديدة على معنى التفكير والفهم وإدراك الجوهر أو التفسير، بحيث يمكن أن يفهم بها: المعرفة التامة بحقائق الأشياء، وهذا ما أدركه وأقره الأئمة الأربعة وعلماء السلف رضوان الله تعالي عليهم أجمعين)[2].

فعملية نصب الأدلة في منهج الاستدلال عملية تراعي الحكمة الشرعية والعقلية في تفهم أوجه الدلالة في مقام الشرع، وفقه العقل، وهي تأكيد لإدراك جواهر الأشياء وتحديد كنهها وما هيتها، فضلاً عن أنها تكسب المنشغل بها قناعات تتوهج في الذهن، وتترسخ في النفس، ويحصل بها اليقين.

وهذا المفهوم الواسع للصلة بين الدليل والحكم هو منطلقنا في الدراسات الدعوية، إلى جانب الدرايات الأخرى، إذ أنه يحدد بَدقة ملامح الخطاب الديني.

ذلك أن (العلم بمراد المتكلم يعرف تارة من عموم لفظه، وتارة من عموم علته والحوالة على الأول أوضح لأرباب المعاني والفهم والتدبر)[3].

على أن ما نعنيه من هذه العلاقة بين الدليل والحكم هو إثبات الدعوي أو نفيها، وبيان صحتها أو خطئها.

---

(١) ، (٢) إسلامية المعرفة: المبادئ العامة. خطة العمل. الإنجازات (ص ٦١، ٦٢) مرجع سابق.
وانظر: إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول للشوكاني، تحقيق أبى مصعب محمد البدري (ص ٤١٧) بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ط (٤) ١٩٩٣م، وراجع من أجل انطولوجيا إسلامية مساهمة في تجديد الوعي الإسلامي: محمد مزور. سلسلة دراسات فكرية العدد (٩) وزارة الثقافة بدمشق ١٩٩٣م.

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم (١/ ١٩٦).

تأصيل قاعدة ترتيب الأحكام على الأدلة:

لأن الدليل له أثره البالغ في إقناع المدعو واقتناعه، ونقله من محيط الشك إلى اليقين، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الافتراء المحض إلى الانصياع للحق. وهذا من مقتضيات العقول السلمية، لأن الدليل له هذا الأثر وتلك القيمة، ولأنه ـ إذا صح ـ فرقان بين الحق والباطل، والضلال والهداية، والاعوجاج والاستقامة، لأنه كذلك راعي القرآن الكريم في منهجه الدعوي الاستدلالي حتمية نصب الأدلة للعقول لتتراءى فيها قيم الإثبات والنفي، وتظهر فيها جلية شارات العدالة ومعالم الحق، وليحسم بها الجدل، وينقطع النزاع.

(فالمعيار الذي لا يزيغ أن يكون طالب العلم مع الدليل في جميع موارده ومصادره، لا يثنيه عنه شئ ولا يحول عنه حائل)[1].

تأصيل القاعدة:

إذا تأملنا القرآن الكريم سنجده مترعًا بالأدلة التي توضح ذلك، ومنها ما يلي:

قال الله تعالي ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ**

---

(١) أدب الطلب ومنتهي الإرب للإمام الشوكاني (ص ١٠٤) نقلاً عن معالم تجديد المنهج الفقهي ـ أنموذج الشوكاني . حليمة بو كروشة (ص ١٩٧) كتاب الأمة . العدد ٩٠ ـ ٩١. ط ١٤٣٣هـ / ٢٠٠٣م.

﴿أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

دلالات التأصيل:

عندما نتأمل هذه الآيات نجد ما يلي:

[١] قضية "ادعاء" و "إنكار".

ادعاء ماذا ؟! وإنكار ماذا ؟!.. ادعاء "الألوهية" من رجل قال المفسرون عنه إنه (الملك النمرود)[2]، وإنكاره إياها على الله تعالى.

[٢] قضية نفي وإثبات من نبي الله إبراهيم عليه السلام في محاجة ذلك المدعي.

ومضامين قول إبراهيم عليه السلام في محاجته لهذا المنكر المدعي وإنكار ادعائه ونصب الحجة على فساد تصوره .. إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي وتميت فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجو، في خلق ذراته ومجراته، وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه شمس تبدو كل يوم مشرقة، فإن كنت إلـٰها كما تدعي .. تحيي وتميت فأت بها من المغرب؟

(فلما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت أي أخرس فلا يتكلم، فقامت عليه الحجة .. والله لا يهدي الظالمين ولا يلهمهم حجة ولا برهانًا، بل حجتهم داحضة عند ربهم ، وعـليهم غضب، ولهـم عـذاب شـديـد)[3].

---

(١) سورة البقرة (٢٥٨ـ ٢٦٠).

(٢)راجع تفسير روح المعاني للألوسي (٣/ ١٦) دار إحياء التراث العربي. بيروت. بدون تاريخ. وتفسير القرطبي (٣ / ٢٨٣) وما بعدها دار الكتب المصرية ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م، ومفاتيح الغيب للرازي (٧/ ٢٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٣١٣) دار التراث بدون تاريخ، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للعلامة أبى السعود (١/ ٢٩٢) دار الفكر. القاهرة . بدون تاريخ، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي، تحقيق: الرحالي الفاروق، وعبد الله الأنصاري وآخرون (٢/ ٣٩٧، ٣٩٨) مؤسسة دار العلوم للطباعة والنشر . قطر ـ ط (١) ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

obeikandl.com

[٣] قضية "تأمل" من رجل صالح ـ على الراجح ـ قال عنه المفسرون إنه عزيز، ولاحظ أن الله تعالى نصب له فيها الأدلة للتثبيت، وتحقيق اليقين.

وكل هذه القضايا لم تكن عارية من الدليل بل طلب فيها الاستدلال على صحة الادعاء ـ كما في قضية ادعاء الألوهية ـ من ذاك المدعي مع علم نبي الله إبراهيم عليه السلام أنه سيعجز عن الإتيان بدليل يؤكد صحة دعواه لعلمه اليقيني بوحدانية الله تعالى، وبطلان إلهية غيره.

وصارت القضية ساحة للجدل يدلي كل بما لديه من أدلة يراها قاطعة في محاولة لإفحام الآخر، فادعي نمرود دليلاً هو أنه بإمكانه إحياء الموتي بالعفو عمن قضى عليه بالإعدام، ولو واصل نبي الله إبراهيم عليه السلام جداله في تلك القضية لأفحمه، ولكنه أراد أن يضعه أمام دليل يعجز عن ادعاء مثله والإتيان بنظيره.

ونصب نبي الله دليلاً طلب منه الإتيان بمثله ﴿ **فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ** ﴾، وهنا يعجز المدعي عن الرد، ونصْب أدلة على نحو ما أتي به نبي الله عليه السلام ﴿ **فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾.

وذات مرة أراد نبي الله إبراهيم عليه السلام أن يقيم لذاته الأدلة علي قدرة الله تعالي على إحياء الموتي .. إنه يؤمن بها ويوقن بقدرة الله عز وجل ويجزم بقاهريته، لكنه يريد نصب الأدلة ليزداد إيمانًا واطمئنانًا ويقينًا في رحلة تأمل عميقة في أسرار الخلق الإلهي.

ويسأله الله تعالي سؤال تودد وإيناس ـ وهو أعلم بما يدور في خلَده ـ "أو لم تؤمن قال بلي ولكن ليطمئن قلبي" وكان التوجيه الإلهي بأن يأخذ نبي الله إبراهيم أربعة من الطير ويجمعهن إليه ويذبحهن ويضع على كل جبل منهن جزءًا، وما عليه إلا أن يدعوهن وفيأتينه سعيًا ﴿ **قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ** ﴾

وذات يوم مر رجل على قرية كانت خاوية على عروشها.. فصارت أطلالاً بوائق، يلفها الصمت، ويطويها الفناء، وهنا يقف مع نفسه وقفة يدفعه التأمل والنظر، ويحاول استنطاق الواقع بالأدلة على كيفية إحياء الله تعالي هذه القرية بعد موتها بمن وما فيها..

ويريد الله تعالي أن ينصب له الأدلة على ذلك ليعلم قدرته وقاهريته وهيمنته، فأماته مائة عام ثم بعثه بعد الموت، فسأله﴿ **كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ**﴾.

والأدلة على قدرتي أني أمتك فتحللت عناصرك وصارت ترابًا ثم أحييتك، لكني حفظت أشياء معك لم تتغير طبيعتها .. شرابك وطعامك، وهذا حمارك قد مات فانظر إلى تلك العظام كيف نُنشزُها ثم نكسوها لحمًا .. (وهكذا أجري الله الزمن على الحمار .. وأوقفه عن الطعام .. ولا يمكن أن يفعل الشئ وضده في نفس الوقت إلا الله سبحانه وتعالي الذي بيده مقاليد كل شئ)[1].

وبنصب الأدلة من الله تعالي لهذا الرجل تبين له وأيقن بقدرة الله تعالي، وتصريفه شئون خلقه وتصييره للقضاء .. فثمة أمور يبقي طبيعتها .. وأمور يغير طبيعتها .. وأخرى يفنيها .. وثالثة يحييها.. ورابعة يميتها .. وخامسة يبقيها إلى أجل . سبحان الله القادر.

وفي هذه المواقف الفاصلة في تاريخ الاعتقاد قطع الدليل الشك وأحال الافتراض إلى يقين، والظن إلى علم، وأظهر شارات التوهم وفساد الادعاء، وأثبت بالحجج القاطعة، والبراهين الساطعة أباطيل المغرورين وترهاتهم، وزاد الموقن إيقانًا، والمؤمن إيمانًا، فبثبوت الأدلة تثبت الأحكام، وبوهنها توهن.

وإقامة الدليل قضية تفتقر إلى النظر الدقيق، والتأمل الصادق، والتجرد من كل اعتقاد أو ميل، أو نتيجة مسبقة، [فكل واحد من طريق النظر والتجرد : طريق فيه

---

(١) القصص القرآنى في سورة الكهف: فضيلة الشيخ الشعرواي (ص ١٥) مرجع سابق.

منفعة عظيمة، وفائدة جسيمة، بل كل منها واجب لابد منه، ولا تتم السعادة إلا به، والقرآن الكريم كله يدعو إلى النظر والاعتبار والتفكر، وإلى التزكية والزهد والعبادة، وقد ذكر القرآن الكريم صلاح القوة النظرية العملية والقوة الإرادية العلمية منه قوله تعالى ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا** ﴾[1]. فالهدي كمال العلم، ودين الحق كمال العمل.

وقول الرسول ﷺ (إن خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد)[2]، لكن النظر النافع أن يكون في دليل، فإن النظر في غير دليل لا يفيد العلم بالمدلول عليه، والدليل هو الموصل إلى المطلوب، والمرشد إلى المقصود، والدليل التام هو الرسالة والصنائع][3].

(والقضايا التي يحرر مدلولها في عبارة تخاطب العقل لها وزنها العلمي، ولكن لو أضيف إلى هذه العبارة صورة تطبيقية تعبر عنها، فإن مدلول القضية يصبح أوقع في النفس، وأنفع في مجال التطبيق والتنظير)[4].

وهكذا يتضح افتقار الدليل إلى القوة العلمية، ويدخل النص فيها دخولاً أوليًا، والقوة الصنائعية (العملية) التي تعتمد على الإجراء والاستنباط والتطبيق والالتزام، وبهذا يتحقق العلم النافع، واليقين والجازم.

القائل بغير علم خائض بغير دليل:

لعلك تلحظ هذا المعني بجلاء من خلال قول الله تعالى عن إجابة أهل النار أهل الجنة وقد تساءلوا عنهم ﴿ **مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ**

---

(١)سورة الفتح (٢٨).

(٢) مسند الإمام أحمد (٣/ ٣٧١)، صحيح مسلم، ك الجمعة (٤٣).

(٣)توحيد الربوبية من مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢/ ٥٩) مرجع سابق.

(٤)بحث نحو منهج جديد لدراسة علم أصول الفقه نشر في حولية كلية الشريعة والقانون الدراسات الإسلامية جامعة قطر (ص ١٥٨) العدد (١٢) ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

obeikandi.com

﴿ ۝٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ۝٤٧ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾[1].

ولو دققت في معاني الآيات الكريمة ستجد أن السبب الرئيس في انحرافهم أنهم كانوا يخوضون في إنكار الرسالة بدون دليل، فلم ينشغلوا بنصب الأدلة على ما أنكروا، ولا ما اعتقدوا، فضلوا، حتى جاءهم اليقين، بما جاءتهم به دلالات الوحي الكريم في الدنيا، ولات ساعة مندم!!

ومن الأدلة على ذلك أيضًا ما يلي:

قول الله تعالى:﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ۝٢٠ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾[3].

وقال تعالى ﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[4].

وقال تعالى﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[5].

وقال تعالى ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾[6].

---

(١) سورة المدثر (٣٨: ٤٨).
(٢) سورة الغاشية (١٧: ٢١).
(٣) سورة يونس (١٠١).
(٤) سورة المؤمنون (١١٧).
(٥) سورة البقرة (١١١).
(٦) سورة الأنبياء (٢٤).

obeikandl.com

وقال تعالى ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[1].

وقال تعالى ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[2].

وقال تعالى ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾[3].

وثمة آيات كثيرة يمكن أن تؤصل بها هذه القاعدة المنهجية الدعوية الاستدلالية.

تأملات في هذه الآيات الكريمة:

لعل مما يبدو بوضوح من خلال تأملنا في هذه الآيات الكريمة ما يلي:

١ـ نصبت الآيات الكريمة الدليل في معرض الإثبات والنفي وإقامة الحجة الدامغة على صدق قضايا الدعوة وإفحام خصومها.

٢ـ توجهت الآيات الكريمة إلى المخالفين، والمعارضين والمشركين، والمنكرين، بأن يأتوا بالدليل على صحة ما يدعون وإلزامهم عاقبة مآلهم، وسوء منقلبهم إذا لم يقيموا تلك الأدلة "**فإنما حسابه عند ربه**".

---

(١)سورة النمل (٦٠ـ ٦٤).

(٢)سورة الأنعام (١٤٩).

(٣)سورة الأنعام (٨٣).

وطلب الاستدلال علي صحة المعتقد هنا ليس على بابه وإنما علي سبيل التحدي والإعجاز والإلزام، لأن أحدًا لا يستطيع أن يقيم الأدلة على وجود إله غير الله تعالي **"قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين"**. لكن يبقي لنا إقرار القيم الاستدلالية المتمثلة في طلب إقامة الدليل حتى مع المخالفين في الاعتقاد.

٣ـ يستأثر الله تعالي لنفسه بإقامة الحجة البالغة على خلقه لإحاطة علمه تعالي، وشموله **"قل فلله الحجة البالغة"**.

٤ـ نصبت الآيات الأدلة من الواقع المشاهد، فأبرزت آثار الصنعة الإلهية، ووضحت قدرة الله تعالي وطلاقة تصرفه في كونه، وجعلت من ذلك دليلاً واضحًا بينًا وبرهانًا قاطعًا.

٥ ـ عابت الآيات الكريمة على المنكرين والمعارضين عدم انتفاعهم بالأدلة المنصوبة في الكون لإثبات قضايا الدعوة والإيمان بها، وبينت أن الإعراض عن الآيات، والدلالات، والحُجج، والبراهين المنصوبة في الكون المنظور، وكتاب الله تعالي المقروء، وطمس معالمها، وتعمد إغفالها وتجاهلها، إنما نشأ عن حجب العقول والتشويش على الفطرة، وإعاقة بل وتعطيل وسائل الإدراك واتباع **الهوي "بل هُم قوم يَعدِلون" .. "بل أكثرُهم لا يعلمون" .. "قليلاً ما تذكَّرون"..."وما تغني الآيات والنُّذُر عن قوم لا يؤمنون".. "بل أكثرُهم لا يعلمون الحقَّ فهُم معرضون"**.

علي أن الأمر بالنظر في الكون ينطوي على علاقة الدلالة المتحققة بين الناظر والمنظور (وهو ربط واضح بين الإيمان والعلم، فإذا لم ينظر الإنسان في السماء والأرض ويتفكر في روائع خلق الله وما تضمه من حقائق علمية، فلن تغني عنه الآيات و النذر، ولن يصل قط إلى الإيمان الصحيح، لأنك إنما تؤمن بالله لما ترى من بدائع صنعه، ولم تصل إلى معرفة بدائع الخلق إلا إذا تأملت وفكرت لتتفتح أمامك مغاليق أسرار القو ة في ذلك الكون الذي تعيش فيه)[1].

---

(١)الإسلام في عشرين آية: د/ حسين مؤنس (ص ١٩٠) الهيئة المصرية العامة للكتاب مكتبة الأسرة ٢٠٠٢م.

obeikandi.com

٦ـ بينت الآيات الكريمة أن أي حكم عار من الدليل لا قيمة له، وأن الحكم الصحيح لا يمكن أن يتخلف عن دليل صحيح، وهذا يؤصل قيمة الدليل في منهج الاستدلال، لأنه إذا صح الاستدلال انحسم الخلاف، وتحتمت قيم الثبوت وصحت التصورات، واندحرت الترهات.

أهمية قاعدة ترتيب الحكم على الدليل:

تتمثل أهمية هذه القاعدة لمنهج الدعوة الاستدلالي فيما يلي:

١ـ إنها تجعل الداعي على ثقة بقضيته، مما يجعله أكثر حرصًا على تبليغها وبيان طبيعتها والدفاع عنها.

وبدون الدليل لا يمكن أن يتحقق للداعي هذا الثبوث، ولا تلك الثقة، ولا يخفي ما لهذا من تأثير سبلي علي قناعات المدعويين به، ولا يخفي ما للدليل من قيمة في معرض الإقناع والاقتناع، وأول ما يطلب من الإنسان في دعواه الإتيان بالدليل.

٢ـ إنها تؤكد خصيصة من خصائص الدعوة الإسلامية من حيث كونها دعوة مبرهنة، ليست عارية من الأدلة، بل إنها تقدم الدليل بين يدي القضية لضمان قبولها، وتحقيق الإيمان، مما يجعل قضاياها محل قبول لا رفض، وأخذ لا رد، إذا ما خلصت العقول، وتلاشت والمعوقات.

٣ـ أن مراعاة هذه القاعدة يمكِّن الداعي من نصب الأدلة بما يتفق ومعطيات العقل ومبادئه، وإقامة الحجج القاطعة والبراهين الثابتة، والأدلة الظاهرة مع مراعاة مستويات إدراك المدعو.

٤ـ ولا يخفي ما لهذا أو ذاك من أثر بالغ على ثبات الإنسان على القيم والمبادئ والفضيلة، وثباته على الحق والعدل.

obeikandl.com

المبحث الخامس
اعتماد الأدلة اليقينية لا الظنية

اليقين الذي نقصده :

يعد اعتماد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم على الأدلة اليقينية لا الظنية واحدة من روائع قواعد المنهج الاستدلالي في معرض عرض القضايا الدعوية، وبيانها وتوضحيها، وإثباتها على نحو من اليقين.

وهذه القاعدة تنسجم مع التفكير السديد، والنظر العقلي السليم، ذلك أن العقل يقضي بأن العلم لا يأتي إلا باليقين، وأن الظن والخرص والتوهم والافتراض، والطرح العاري من اليقين بوجه عام من المستحيل أن يوصلنا إلى معلومات يقينية.

الظن الذي نعنيه :

على أننا لا نقصد بالظن هنا الاحتمال، فهذا أمر تحتمله بعض نصوص الشريعة[1] وإنما نقصد به الحكم بغير علم.

فالظن بهذا المعني لا ينتج عنه إلا ظن مثله، والوهم لا يترتب عليه إلا وهم، والخرص أو الحدس لا يترتب عليهما إلا خرص أو حدس، والافتراض معلومات احتمالية قد تثبت، وقد لا تثبت. كما أنه قد لايسعفها الواقع في الثبوت .. لا سيما إذا نصب من الرؤي والتصورات التي تؤكد الافتراض، بل ربما ينطق الواقع بما يناقضه، وعلى كل فليس من بين ذلك كله ما يرقي إلى الدليل، لأنها مصادر تندفع

(١)علم أصول الفقه: عبد الوهاب خلاف (ص ٤٣) وما بعدها، مرجع سابق، وقد سبق توضيح ذلك في بيان طبيعة الأدلة القرآنية (تراوح الدلالة القرآنية بين القطعية والظنية).

obeikandl.com

بالهوي، وتتأثر بالبيئة، وهي مظنة خطأ محقق، إذْ أنها لا تعتصم بمعارف الوحي، ولا تستمد من الواقع ما يؤكد صدقها، أو يدلل على حقيقتها.

أضف إلى ذلك أن نتائجها محل شك مطلق، من ثم فلا يمكن الوثوق بها، ولا يخفي ما لذلك من آثار خطيرة في مجال إثبات العقائد، ووضع قواعد الأخلاق والنظم الاجتماعية، وأصول الاقتصاد ومبادئ السياسة.

والظن والخرص كلاهما نتاج عقل محض من حيث طبيعته وكنهه وماهيته، بل إنه نتاج عقل عار من الدليل الصحيح، هذا فضلاً عن أن العقل ولو مارس دوره الإدراكي بدقة فهو محدود الإدراك.

من ثم يكون مظنة الخطأ، وبالتالي فهو يفتقر إلى من يصحح له خطأه، وخاصة فيما لا يمكن أن يقع تحت دائرة إدراكه، وليس بالضرورة أن ما يدرك عن طريق الحواس يكون موضع قبول مطلق أو تصديق مطلق، وإنما يكون موضعًا للأخذ والرد، والقبول والرفض.

وقضايا الدين لا يمكن أن تثبت بالظن، أو بأدلة احتمالية أو بأفكار عقلية، حتى لو كانت مقترنة بأدلة، إذ العقل لا يستقل باستصدار مثل هذه الأحكام، ولا يرقي إلى درجة وضع أصول وقواعد دينية عقدية أو تشريعية، لأن نتائجه قد تتناقض مع ذاتها في ذات الوقت أو في أوقات متغايرة، طبقًا لما تمليه الظروف، وتغير أسباب استصدار الأحكام.

وهذا سر تغيير القوانين الوضعية من آن لآن، ومن بيئة لأخرى، لأنها تمخضت عن رؤية غير متكاملة، ومصدرها غير معصوم، وورود الخطأ فيه قائم إن لم يكن محتمًا.

على أن العقل إن صفا إدراكه، واستقامت مداركه، و ضبطت وسائله اتفق مع صريح المنقول.

ومن ثم نجد القرآن الكريم ينعي على المتحاكمين إلى العقل، الرافضين للدين،

المنكرين للرسالات، ذاك الاتجاه العقدي الفاسد، بل وينكره عليهم، ويتوعدهم على ذلك أشد الوعيد، لأنهم عطلوا وسائل الإدراك، ولم يستجيبوا لداعي الله، ولا لنداء الحق، وأخضعوا الدين لتصوراتهم وآرائهم، وأبوا إلا أن يحكمهم النزوع، وتدفعهم الأهواء !!!

تأصيل قاعدة اعتماد الأدلة اليقينية لا الظنية:

إذا تأملنا القرآن الكريم نجده مترعًا بالشواهد التي تدل على أنه اعتمد في منهجه الدعوي الاستدلالي، وخاصة في مجال إثبات العقائد وأصول الشرائع، على الأدلة اليقينية التي تفيد القطع والثبوت، ولا يتطرق إليها شك أو احتمال.

ومن هذه الآيات ما يلي:

قال تعالى:

١ـ ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[1].

٢ـ وقال تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[2].

٣ـ وقال سبحانه ﴿ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴾[3].

٤ ـ وقال تعالى﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا

---

(١) سورة الروم (٨، ٩).

(٢) سورة فصلت (٥٣).

(٣) سورة الانشقاق(١٤).

obeikandi.com

جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[1].

٥ـ ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾[2].

٦ـ وقال تعالى﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾[3].

٧ـ وقال تعالى﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾[4].

٨ ـ وقال تعالى ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾.[5]

٩ـ وقال تعالى ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾[6].

١٠ـ وقال تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ[7] أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[8].

---

(١) سورة فصلت (٢٢، ٢٣).
(٢) سورة الجن (٧).
(٣) سورة القصص (٣٩).
(٤) سورة الحشر (٢).
(٥)سورة الكهف (٣٥، ٣٦).
(٦)سورة الجاثية (٣٢).
(٧)الضمير يرجع إلى اليهود في السياق السابق.
(٨)سورة البقرة (٧٨).

١١ـ وقال تعالى ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴾[١].

١٢ـ وقال تعالى ﴿ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾[٢].

١٣ـ وقال تعالى ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴾[٣].

١٤ـ وقال تعالى ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴾[٤].

١٥ـ وقال تعالى ﴿ أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[٥].

١٦ـ قال تعالى ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾[٦].

١٧ـ وقال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[٧].

---

(١)سورة الأنعام (١١٦).
(٢)سورة الأنعام (١١٩).
(٣)سورة الأنعام (١٤٨).
(٤)سورة يونس (١٤٨).
(٥)سورة الجاثية (٢٣، ٢٤).
(٦)سورة يونس (٦٦).
(٧)سورة ص (٢٧).

obeikandl.com

١٨ـ وقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾[1].

دلالات التأصيل:

إذا تأملنا هذه الآيات نجد ما يلي:

(١) إن القرآن الكريم ركز في منهجه الدعوي الاستدلالي على ضرورة الاعتماد على الأدلة اليقينية التي تفيد القطع والثبوت، لا على الظن الذي يفيد التوهم، ويقوم على محض افتراض، وهذا مدلول قول الله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ ، وقوله تعالى ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ .

(٢) استنطق القرآن الكريم الواقع بالأدلة اليقينية، ولفت الأنظار إلى ضرورة البحث والتحري عن طريق التأمل والتفكر في آيات الخلق التي لا تقبل دلالتها شكًا أو احتمالاً، فهذه آيات الله تعالى في النفس الإنسانية، وتلك آياته تعالى في كونه، وهذه وتلك تنسجمان انسجامًا كاملاً مع العقل، وبهما يتحقق العلم، وينقطع الوهم، ويتداعي الظن، ويزول الخرص، وتدحض الحجج الواهية، إذ أنها تتناقض مع الواقع، ولا تثبت أمام العقل الصحيح، والنظر الثاقب،

وهذا مدلول قول الله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.

(٣) بين القرآن الكريم بطلان العقائد والرؤي والتصورات التي قامت أو التي من الممكن أن يقيمها المغرضون المدعون على أساس الظن والخرص كعقائد الدهريين الذين قالوا "نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر" وكانت مقولتهم في

---

(١)سورة النجم (٢٧ ـ ٣٠).

الخلق وإنكار البعث "إن هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع" !، وذلك الذي ظن أن الساعة لا تقوم، **"وما أظن الساعة قائمة"** وغرره الوهم" **ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرًا منها منقلبا"**، وأولئك الذين ظنوا أن حصونهم ستمنعهم من إيقاع الله تعالى العذاب بهم، هو مدلول قوله تعالى **"وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله"** ولم يغن عنهم ظنهم من الله شيئًا" **فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب"** .

وذلك الذين فسدت تصوراتهم حين ارتكبوا المعاصي، وظنوا ألا شاهد عليهم وأن الله لا يعلم كثيرًا مما يعملون.

وهذا مدلول قوله تعالى ﴿ **وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ فأرداهم سوء ظنهم بالله تعالى ﴿ **وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ** ﴾. واستحقوا لعنة الله وساء مصيرهم ﴿ **فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ** ﴾.

(٤) وركز القرآن الكريم على أن العلم والظن نقيضان لا يمكن أن يجتمعا، وأن الظن لا يمكن أن يثمر علمًا أو يدل عليه، وأن العلم لا يمكن أن يتمخض عن ظن، وأن الظن لا يقوم مقام الحق ولا يغني من شيئًا، وهذا مدلول قول الله تعالى" وما لهم به من علم إن يتبعون يسمر إلا وإن الظن لا يغني من الحق شيئًا".

(٥) بين القرآن الكريم عوامل النزوع إلى الظن من حيث أنه ينطلق من هوي محض، وتعطيل لوسائل الإدراك، وتعمية العقل، وخداع النفس، وتضليل القلب، وتشويش الفطرة، بل إن الذين اتبعوا الظن طريقة لإثبات عقائدهم ورؤاهم وتصوراتهم الفاسدة ألَّهوا هواهم وعبدوه من دون الله تعالى.

وأمثال هؤلاء يخالفون الأصول المعرفية التي قررها الوحي[1] الإلهي، والتي تعتمد ـ كما يرى بعض العلماء والباحثين على ما يلي:

---

(١) ويدخل في ذلك السنة الشريفة باعتبارها وحيًا من حيث المعني.

(١ـ العلم العقلي المبني على الدليل والبرهان.

٢ـ العلم الفطري المركوز في طبائع الناس كافة.

٣ـ الوحي الإلهي الداعي إلى الدين والإيمان بالمثل والقيم الحضارية)[١].

وهذه الأصول هي التي ينضبط بها الإدراك والتفكير، ويستقيم بها الاعتقاد والسلوك، وتُرسي في ضوئها القيم والمبادئ والأخلاقيات، ويصل بها العقل المعرفي إلى اليقين.

ولا غرو فالهوي يفسد في الحياة كل صالح، ويقبح فيها كل جميل..

وباتت آراء هؤلاء وعقائدهم مجرد دعوي كاذبة، وافتراء محض، لم يقم على أساس من العلم، ولم يسعفها من الواقع ولا العقل دليل، فضلوا وأضلوا، وهذا مدلول قول الله تعالي "﴿ **وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ** ﴾. وقوله سبحانه ﴿ **أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** ﴾.

(١) أبعاد التكوين العقلي للفرد في الإسلام: كارم غنيم (ص ٣٥) مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٨٨ وفيه تفصيلات تؤكد ما ذكرناه، ومقارنات بين العقل العربي والعقل اليوناني في نظرتهما لأصول المعرفة.

obeikandl.com

المبحث السادس

المقابلة والتمييز

من قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم **"المقابلة والتمييز"**، ولهذه القاعدة قيمتها العظيمة في ميادين العمل الدعوى، فهي جسم للمدعو بصدق وجدية طبيعة المتقابلات والمتناقضات والمتضادات، والتي ينبغي أن تكون لها صور فاصلة في العقول بحيث لا يحدث هنا قفز فوق الأسوار والفواصل والحدود القائمة بين هذه المتقابلات، فينشأ عن ذلك خبط أو لبس أو خلط، وبين هذا وذاك تضيع معالم الحقيقة، وتصير الصورة قاتمة تمامًا لا يستطيع العقل التمييز بين عناصرها بتأثير عوامل التشويش.

وتأتي هذه القاعدة المنهجية لتبرز قيم الحق والصدق والعدل والخير والجمال، تجعلها ماثلة في ذهن المدعو في حين تكشف له دعاوي الباطل، وآفات الكذب، وقبائح الظلم، وعواقب الشر، وقبح القبح.

وليس على المدعو بعد ذلك إلا أن يقف بين هذه الحدود والفواصل لينظر عن يمينه تلك القيم والمثل والمبادئ العادلة، وعن يساره تلك القيم المرذولة، ويتجرد من عوامل التأثير البيئي والعقدي الاجتماعي، ليفصل هو بين هذه المتقابلات في الحكم برويَّة وعقلانية .. أيها ينبغي اتباعه، وأيها ينبغي إقصاؤه من الحياة، وتنحيته عن تدنيس آفاق الوجود، وتشويش الفطرة، وتعكير صفو الحياة.

وليحكم هو ف هذه القضايا المتقابلة: النور أم الظلمة .. الجمال أم القبح .. الطمأنينة أم القلق والتوتر .. الخير أم الشر .. الفضيلة أم الرذيلة .. الانضباط أم التسيب .. الحرية أم عبودية الهوي .. الهداية أم الضلال .. الغواية أم الرشاد؟! ثم يقيس على ذلك الإيمان والكفر.

obeikandi.com

وهكذا يعتمد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم من خلال هذه القاعدة على طرح هذه المتقابلات بكل حدودها وفواصلها أمام القسمة العقلية السديدة للموازنة والتمييز.

علمًا بأن معطيات هذه القسمة تعطي لنا قناعات ذاتية غاية في العقلانية تتفق مع قول الحكماء :"**وبضدها تتميز الأشياء**"، وبناء على الحكمة الراشدة: "**لا يعرف الإيما من لم يعرف الكفر** "، والحكمة القائلة: "الصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يشعر بها إلا المرضي"

وبالقياس أقول: لا يعرف لذة العطاء إلا من تجرع مرارة الحرمان، ولا يعرف قيمة البصر إلا من أبصر بعد عمي، ولا يعرف قيمة السمع إلا من سمع بعد صمم، ولا يعرف نعمة الإبانة إلا من نطق بعد بكم.

وهذا ما تقتضيه القسمة العقلية الصادقة، والحكمة الرشيدة، حيث إن تمييز الأشياء بضدها واضح الدلالة، كامل الإبانة على مخالفة النقيض وتمايزه من حيث الجوهر والمظهر، ومن حيث دلالاته الكائنة في ذاته، ودلالاته البارزة في مظاهره.

والعقل لا يصعب عليه التمييز بين هذه الجواهر والظواهر، ولا يعييه حسم أوجه التناقض والاختلافات بينها.

فلقد (من الله تعالي على العباد بعقول فدلهم على الفرق بين المؤتلف والمختلف، وهداهم إلى سبيل الحق نصًا ودلالة .. وكان عليهم تكلف الدلالات بما خلق لهم من العقول التي ركبها فيهم)[1].

وهذا مبني على افتراض صحة العقل وسلامة النظر، وتهيئة الأجواء و الظروف المناسبة له لضمان صحة الفصل بين هذه المتقابلات .. وإذا ما تجرد من الهوي والمزيغ والبهتان والافتراء، ومن عدم الانصياع لوجه الحق الظاهر فيها.

---

(١) الرسالة للإمام الشافعي: تحقيق أحمد شاكر (ص ٥٠١ ـ ٥٠٢) مطبعة مصطفي البابي الحلبي. بدون تاريخ.

obeikandl.com

أما إذا لم يتجرد من ذلك فلن يصل إلى فصل واضح، ولا إلى تفريق بين المتناقضات، ولا إلى حكم صحيح فيها، وبالتالي تتيه عنه معالم الحق، ودلالات اليقين، وفيضمحل ويتلاشي، ويضيع بين أناس من المفترض أنهم عقلاء .. ولكن قلوبهم طويت على مرض، وعقولهم تقاصرت عن التجرد، وأبت إلا البعية، ورفضت الاستقلالية بالحق!!

تأصيل هذه القاعدة:

لقد أشار القرآن الكريم إلى هذه القضية وبين الأسباب والدوافع التي تدفع بعض العقول إلى الفصل بموضوعية بين تلك المتقابلات، وتلك التي تدفع البعض الآخر إلى الإنكار والتمرد، أو الإعراض واتباع الهوي.

فالقرآن إذن شخّص الداء، ووضح العلل، وبين العلاج، وعلى الإنسان أن يستعين بهذا المنهج الاستدلالي الرائع في القرآن في الحكم بين هذه القضايا، والفصل بينها فصلاً يريح العقل ولا يعييه، ويهديه ولا يشقيه.

ومن أدلة ذلك قوله تعالي:

١ ـ ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1].

٢ـ وقوله تعالي ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[2].

---

(١)سورة البقرة (٢٥٥، ٢٥٦).

(٢) سورة المائدة (١٥، ١٦).

obeikandl.com

٣ـ وقوله تعالى ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[١].

٤ـ وقوله تعالى ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[٢].

٥ـ وقوله تعالى ﴿ الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[٣].

٦ـ وقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[٤].

٧ـ وقوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾[٥].

٨ ـ وقوله تعالى ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾[٦].

٩ـ وقوله تعالى ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾[٧].

١٠ـ وقوله سبحانه ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾[٨].

---

(١) سورة الأنعام (١).
(٢) سورة الأنعام (١٢٢).
(٣) سورة إبراهيم (١،٢).
(٤) سورة إبراهيم (٥).
(٥)سورة الأحزاب (٤٣).
(٦) سورة الرعد (١٦).
(٧) سورة فصلت (٣٤).
(٨) سورة السجدة (١٨).

١١ـ وقوله تعالى ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾[١].

١٢ـ وقوله ﷻ ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾[٢].

١٣ـ وقوله تعالى ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٣].

١٤ـ وقوله تعالى ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾[٤].

١٥ـ وقوله ﷻ ﴿ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾[٥].

١٦ـ وقوله سبحانه ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[٦].

١٧ـ وقوله تعالى ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[٧].

دلالات التأصيل:

١. حكمة التمييز بالنقيض:

يبدو مما سبق روعة منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم إذ يعتمد في

---

(١) سورة المائدة (١٠٠).
(٢) سورة فاطر (١٩ ـ ٢٢).
(٣) سورة الزمر (٩).
(٤) سورة غافر (٥٨).
(٥) سورة الحشر (٢٠).
(٦) سورة هود (٢٤).
(٧) سورة الجاثية (٢١).

obeikandi.com

نصب الأدلة على حكمة التمييز بالنقيض، ولا يخفي ما لذلك من دلالات تفيد القطع، وتقطع الوهم، وتخرج الإنسان من طلمات الاعتقاد، إلى صحيح الإيمان، ومن انحرافات الأديان[1]. إلى صحيح الإسلام.

فالعاقل عندما يتجرد للحق يستطيع أن يميز بين الخبيث والطيب، والحسن والسوء، والموت والحياة[2]، وبين من يميز ما على الأرض ويفقه الأسرار في آفاق الكون، ومن تطويه القبور .. ومن تدفعه الآمال، ومن تعييه الحِيل.

٢.البينية الراشدة:

إن هذه "البينية" الراشدة بين الأشياء هي التي تبرز قيم الفواصل ودقة الحدود، كما تميز قيم المدركات في العقول، ومهايا الطبائع من حيث الجد والهزل.

فهي **"بينية"** لا تسمح بذوبان المتقابلات وانصهارها وتلاشي الفواصل بينها، فضلاً بينها، فضلاً عن أنها لا تسمح باختلاطها أو التباسها.

إنها إذن تحافظ على **"البعد البيني"** ليبقي معربًا عن الاختلاف والتضاد، ولتبقي المساحة الفاصلة بين هذا أو ذاك شاغرة من محدثات التمويه والتعتيم، ممتلئة بالضوابط والقيود والشروط التي ترسخ معاني الفواصل، وتبرز قيم الحدود.

فمن تجرد عقله من الهوي، وانتصر على المعوقات الإدراكية يستقل بذاتيته في هذا البعد البيني، مما يؤهله للفصل في الحكم بين هذه المتقابلات.

أما من لم يتجرد من ذلك، ولم يتحر الدقة والإنصاف حتمًا سيتيه في هذا "البعد البيني"، وتختلط عليه فيه طبيعة المتضادات وتتيه منه علامات التناقض، فيكون كمن يحاول رؤية الأشياء خلف ضباب كثيف، أو من يميز بين خيطين أبيض وأسود في ظلام الليل.

ومن ثم لا يستطيع التمييز بين الحق والباطل، ولا بين الخبيث والطيب، ولا بين

---

(١)بفعل التحريف والوضع.

(٢) أقصد موت القلوب وحياتها، وهو المعنى الواضح في الآيات الكريمات.

obeikandl.com

الخير والشر، بل ربما يرى هذه المتقابلات معكوسة من حيث طبيعتها، فيرى الحق باطلاً، والباطل حقًا، والمعروف منكرًا والمنكر معروفًا، والخير شرًا والشر خيرًا، والخبيث طيبًا والطيب خبيثًا !! وهكذا دواليك !!!

ومن كانت تلك حاله سلبت منه مقومات التمييز، إذ لم يعد يستشعر الفروق بين المتقبلات، وصار أعمي عن بصر، وميتًا عن حياة[1]، فهو وإن لم يُعْم حقيقة، إلا أنه صار كالأعمي، وإن لم يمت إلا أنه نُزِّل منزلة من مات.

وهذا مدلول قوله تعالي السابق: "﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾.

ومدلول قوله ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[2].

ومدلول قوله ﷻ ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴾[3].

لعله قد اتضح مما سبق قيمة قاعدة "المقابلة والتمييز" لمنهج الدعوة الاستدلالي في القرآن من حيث عرضها الحقائق بموضوعية وحيادية أمام المدعو، ليفصل في الحكم عن بصيرة، وليقرر بذاته ـ وعن طواعية وحرية واختيار ـ قراره بعيدًا عن الضغوط أو المعوقات.

---

(١) تفسير الرازي (٢٦/ ١٥٠) مرجع سابق.
(٢) سورة الأعراف (١٧٩).
(٣) سورة الأعراف (١٩٣).

obeikandl.com

المبحث السابع

قاعدة الهدم والبناء

من قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم قاعدة: **"الهدم والبناء"** وأقصد بها: هدم الأفكار المضطربة والمختلة، والتصورات القاصرة والفاسدة، والعقائد الباطلة والمنحرفة، والنظم الاجتماعية البالية الجائرة، ونظم السياسات الاستدلالية التي تستذل رقاب العباد، وتلوي الأعناق، وتسُوس الناس بالحديد والنار، وتدفعهم إلى مصير يجهلونه أو يتجاهلونه، ومحاربة صور العنف والتطرف والإرهاب، والتي سادت المجتمعات الجاهلية قبل مجيء الإسلام.

ثم تأسس لبناء وتأصيل العقائد الصحيحة، والنظم المنضبطة والتشريعات السديدة، وتنمية الوعي الفكري والثقافي، وضبط التصور الإدراكي لدي البشر بمختلف أجناسهم، وألوانهم وألسنتهم في أي مجتمع، وفي كل موضع قدم على ظهر الأرض، مما من شأنه الحفاظ على الكيان النفسي والاجتماعي والتركيبة البشرية بوجه عام.

منهجية القرآن الكريم في الهدم والبناء:

وقد اعتمد القرآن الكريم في ذلك منهجية قيمة تعتمد على ما يلي:

أ ـ منهجية التطهير.

ب ـ منهجية الإحلال والتأسيس.

أولاً: منهجية التطهير:

أما منهجية التطهير التي اعتمدها القرين الكريم، وهي الإزالة الكاملة لكل صور الانحراف العقدي والبغي والطلم الاجتماعي، والمادية الطاغية، والفلسفات النزاعة إلى الإباحية، ومظاهر وطقوس الروحانيات الغالية والمتطرفة.

obeikandi.com

إنها إزالة لا تُبقي أثرًا لفاسد أو منحرف، ولا تترك له موضعَ قدم يقف عليها ذات يوم في مستقبل الإنسانية وليشرئب ويطل برأسه الخبيثة ليجعل منها منازعًا لقيم الحق والصدق والعدل والجمال والخير.

وهذه المنهجية الرشيدة تتفق مع الواقع وتتفاعل مع العقل، وتنسجم مع الفطر السليمة، والنيات الحسنة.

ومما يؤكد هذا الحكمة القائلة **"العضو الفاسد يجب بتره"**، فإذا فسد عضو في جسد ما فسادًا يؤدي إلى استشراء المرض في سائر أعضاء الجسد فيجب استئصاله حفاظًا على الجسد، والتقصير في ذلك جريمة يعاقب عليها الشرع الحنيف، والعقل السليم، والعرف المنضبط.

وأعتقد أن منهجية الطب في القديم والحديث كانت تعتمد تلك الحكمة الراشدة في المعالجة، وهذا ما يبدو واضحًا في استئصال الأعضاء الفاسدة التي قد تنشأ عن مرض السكر، وكذا استئصال الخلايا السرطانية من الجسد كتى لا تستشري فيه وتفتك به، وترك هذه الخلايا أو الأجزاء العطبة يهدد بقاء الإنسان على الأقل صحيحًا سليمًا معافًا إن لم يودي به إلى المرض الساحق والهلاك الماحق.

ولا أعتقد أن عاقلاً يعترض على هذا، والعاطفة ليس لها دور هنا، والرحمة تكون في مثل تلك الحالات في بتر تلك الأعضاء لا في بقائها.

ولم يقف الحد ـ عقلاً ـ عند مجرد المعالجة، وإنما يسبق ذلك خطوات يطلق عليها "الإجراءات الوقائية" من الأمراض كالبعد عن الأماكن الموبوءة (منظنة العدوي) وتجنب المرضي بأمراض معدية كأمثال مرضي الإيدز، قياسًا على الأمراض التناسلية المعدية كالزهري وغيره، فلا يتزوج رجل بامرأة مصابة بالإيدز ولا العكس، بل إن المتحقق من إصابة أحد الزوجين بذلك المرض بعد الزواج يوجب التفريق بين الزوجين، إذ أن استمرار الحياة الزوجية في ظل تلك الحالات نذير خطر يتهدد الأسرة بكاملها.

فالعقل يقتضي أن الرحمة ظاهرة في التفريق بين هذين الزوجين، أو النهي عن الزواج ممن أصيب بهذا المرض ابتداء، ويقتضي أن الضرر ظاهر في "الإبقاء" كما في الحالة الأولي، أو "الإقدام" كما في الحالة الثانية.

ولم تقتصر الحكمة العقلية في التطهير على التطبيب بإزالة عضو أو نحوه، بل تعدت ذلك إلى مجال الدراسات والإنشاءات المعمارية وما في حكمها، حيث يكون تسوية الأرض التي تقام عليها المنشأة وتمهيدها بإزالة ما كان بها من آثار سابقة، ومن شأنها إعاقة المنشأ الجديد، إلى جانب دراسة التربة التي يقام عليها هذا المنشأ والاستعانة بعلم الجيولوجيا في هذا الصدد، إذ ينبني على هذا تقييم سياسية الإنشاء من تقدير مواد البناء والتسليح والميزانية وغير ذلك مما يتعلق بهذه العملية، وبعد ذلك ـ وليس قبله ـ يتم وضع اللبنات الأولي للمشروع، وهكذا.

وكذلك الحال في الزراعة حيث تقتضي الحكمة العقلية إزالة كل المعوقات التيي تعوق النبات أو ترهقه، وهذا يقتضي دراسة نوعية التربة، وتسويتها ومعرفة نسبة الملوحة بها والقضاء عليها لجعل التربة قادرة على الاحتضان، ثم النظر إلى العوامل البيئية، والمناخ لتهيئة الجو المناسب للإنبات والنمو والتكاثر، وإلا فلن يكون هناك بارقة أمل في الإنبات وتعمير الأرض بالزراعة.

فالأرض الطيبة تنبت نبتة طيبة، ويستطيع الإنسان أن ينعم بخيراتها، أما الأرض الخبيثة التي لم تنبت من المستحيل أن تكون رحمًا لنبات ما لم تؤهَّل أو تهيأ لذلك.

إذن فالحكمة العقلية تقتضي تأصيل مبدأ التطهير قبل البناء والزراعة، وأن أي بناء لم يقم على هذا الأساس سرعان ما ينهدم، ولم يقف هذا عند حد المحسوسات أو الماديات فقط، وإنما يتعدى ذلك إلي مجال الأفكار والمعتقدات والمعنويات بوجه عام.

ففي مجال الأفكار تقتضي الحكمة العقلية التجرد من كل العوامل المؤثرة في الحكم، ومما يشوب الرؤي والأفكار، ويتجه بالتصورات نحو السلب لا الإيجاب، ولابد من هذا التجريد لتهيئة العقل لإمكانية قبول أفكار مغايرة، وتهيئة القلب

للاعتقاد بعقائد صحيحة .. وإلا فإن إمكانية التلقي تكون منعدمة وسيبقي العقل يوسع من دائرة معتقداته القديمة، حتي يضيق دائرة تلك المعتقدات والأفكار المطروحة والمثارة أمامه ليفصل في حكمها، وتتطلب منه ضرورة الخروج بنتيجة.

والحكمة قائلة: (كل إناء مغول بما يملأ فراغه) فلن يقبل إناء من إناء شيئًا إلا إذا أفرغ ما به.

من ثم ندرك خطورة المؤثرات الفكرية البيئية، والتعصب للأفكار والعقائد البالية، وتلقف الأفكار الجديدة، والعقائد المغايرة بالرفض .. فقد ضيقت تلك العوامل مساحة وجودها، بل حاولت وأدها دون أ، تحاول تصورها، فأوصدت أمامها كل نافذة يمكن أن يتسلل منها إلى العقل وسيلة إقناع جادة هروبًا من الاعتراف بالحقيقة لكن ذلك أعياها، وبقيت قيمة الحق راسخة.

بيد أن هناك عقولاً أفرغت ما بها من أفكار وموروثات، تجردت للحق، وتمحضت للصدق، وأزالت كل معوقات التصور الصحيح، وموانع الحكم الرشيد، فأدي ذلك بها إلى نتائج إيجابية حيث أدركت قيمة الحق، واهتدت إليه، فغيرت به مصيرها، وعدلت من مناهج تفكيرها، وحتى بلغت من الرشاد مبلغًا كان من المستحيل بلوغه دون أن تتجرد من ذلك.

التطهير قسمة عقلية كلية لا تقبل التجزئة:

تقتضي الحكمة العقلية أ، يكون التطهير كليًا لا جزئيًا، إذا ما أراد العقل حلاً جذريًا لمشكلة ما، فالعقل الرشيد لا يقبل أنصاف الحلول، لأنها تكون بمثابة "قنابل موقوته" تنسف القديم الكائن فيه والجديد من الأفكار معًا، أو تنسف الجديد منها فقد، وتبقي على القديم البالي الموروث، وهنا ترجع العقول إلى درجة (الصفر) مرة أخرى، تضرب بعرض الحائط كل وسيلة إقناع، لأنها قبلت تجزئة المعقولات من العقائد الصحيحة والأفكار الرشيدة، والشرائع القويمة، فلم تصل إلى حق كامل مجرد، وإنما إلى أنصاف حقوق، وهذه قيم واهية تضل ولا تهدي، فهي لا تغني من الحق شيئًا.

ولا يمكن الإبقاء على نصف ما بالإناء من ملح أجاج أ ما يقل أو يزيد، إذا ما أردت أن أملأه لأشرب ماءًا عذبًا ذلالاً.

كذلك لا يمكن الإبقاء على نصف ما بالعقل من أفكار خاطئة أو ما يقل أو يزيد إذا ما أردت البحث عن أفكار صحيحة، إذا لا يستوي الخبيث والطيب.

فلابد إذن من إفراغ العقل تمامًا من كل مقدمة فاسدة لضمان نتائج صحيحة، ذلك أن قيم العدل والحق لا يمكن أن تجزأ، ففي تجزئتها مضيعة لها، والإنسان لا يمكن أن يطلق عليه أنه عادل في حكمه بنسبة (٩ر ٩٩٪)، لأنه يجب أن يتحري ذلك بنسبة (١٠٠×١٠٠) فتجزئة العدل إلى نسب لانصف أو الربع أو الثلث أو ما يزيد أو يقل عن ذلك واقع غير منضبط.

وهذا مقتضي الحكمة العقلية القائلة (نصف الحق كل الباطل) ذلك أنه إذا حكم لإنسان في خصومة ما بنصف حقه فقط، فقد أضيع منه النصف الآخر، وهفي ذلك مضيعة للحق الكامل، وهذا باطل.

القسمة الكلية لا تنفي التدرج:

مما ينبغي فهمه أن القسمة الكلية العقلية لا يمكن أن تتنافي أو تتناقض عقليًا مع سنة التدرج، لأن التدرج يعتبر مرحليات للوصول إلى غاية كلية في النهاية، والتدرج إنما يراعي قدرات النفس وطاقاتها ويكون هذا في إطار التشريعات على سبيل الترقي والتعود لا التجزئة.

أما القسمة الكلية فتنحصر في مجال العقائد الصحيحة وما ينبني عليها من أفكار منضبطة.

فلا يمكن التسليم للعقل بأن للكون إلهين بدلاً من ثلاثة، ومن المستحيل التسليم إلا بإله واحد، كما لا يمكن قبول بعض الصفات الإلهية ورفض البعض الآخر، أو تعطيلها، كما لا يمكن الإيمان بالرسول وإنكار الوحي والعكس، ولا الإيمان بجملة العقائد وإنكار اليوم الآخر .. وهكذا.

فإما أن يقبلها العقل بصورتها الكية الكاملة فيصير موحدًا مؤمنًا، وإما أن يرفضها كليًا فيصير مثلثًا أو مثنيًا أو كافرًا أو ملحدًا أو مشركًا ويتحمل هو نتيجة قراره.

فهذه أصول تضبط بها العقائد وتصان، والعقل يقتضي حفظ الأصول وصيانتها، مثلما يراعي حفظ الفروع.

ثانيًا: منهجية التأسيس والبناء:

في ضوء هذا النهج الذي تقتضيه القسمة العقلية في التطهير الكامل لكل المعوقات التي يمكن أن تسبب في المستقبل القريب أو البعيد، أو في الوقت الآني مشكلة فكرية تتهدد إرساء قيم العقائد الصحيحة، والشرائع الصادقة، وقيم الحق المطلق.

وطبقًا لما تمليه من ضرورة تلافي هذه المشكلات، والقضاء عليها تمامًا .. في ضوء هذا النهج، وبعد مرحلة التطهير تأتي منهجية البناء والتأسيس، وقد تطهرت العقول من كل ما يعوقها عن النظر الصحيح والتأمل الصادق، والنظرة الثاقبة. وصفت النفوس .. ونهيأت الفطر لتقبل كل ما جاء عن الحق سبحانه وتعالي من عقائد وشرائع وأخلاقيات وقيم ومبادئ تحقق لمجتمع الأمن والطمأنينة، وللعقل الرشاد والاستقامة، وللنفس الاستقرار والثبات، والعزة والكرامة.

فالإنسان بقدر عقله، والعقل بقدر صدقة، وصدقة بقدر صفائه ونقائه.

ولا يمكن أن تقبل القسمة العقلية نجاح التأسيس والبناء للدين الحق ما لم تطهر القلوب والعقول والنفوس من دنس الباطل، ورجز الشيطان ونزعات النفس، وهواجس الخاطر، وانحرافات العقائد، وظلم القوانين والأعراف وطغيان الواقع.

من ثم نجد القرآن الكريم يثير العقل إلى النظر في مقدمات تفضي إلى نتائج تقتضي فساد التصورات العقدية التي سادت البيئة العربية والعالم آن مجيئه، وتبين انحرافات الشرائع، وظلم القوانين، وسطوة الأعراف والتقاليد، وتبين خطورة الاستكانة لذلك الواقع الذي يضم في طياته كل صور الانحراف والفساد.

obeikandi.com

وهكذا جاء الإسلام في منهجه الاستدلالي ليقيم في العقل ثورة على كل فاسد، ويدعوه إلى ضرورة تغيير ذلك الواقع، وتطهيره من تلك الصور الفاسدة وذاك النهج الفكري المتداعي.

ثم تأتي مرحلة "التأسيس والبناء" كمرحلة ثانية من مراحل منهجية الاستدلال متزامنة مع مرحلة التطهير، غير منفصمة عنها إيقانًا بحتمية البديل الصالح للموروث الفاسد في صور مختلفة، كالمقارنات، أو التمثيل، أو إصدار الحكم ابتداءًا.

وهذه منهجية أرسي القرآن الكريم قواعدها في تأسيس أو تأصيل العقائد، وإكمال كيانها البنائي المتكامل، فقد هدم عقائد التعددية الإلهية بدءًا بـ "الإثنينية" ومرورًا بالتثليث، وإبطال كل صور الشرك، ليقيم التوحيد الخالص لله تعالي.

وهدم عقائد الملاحدة الذين ينكرون وجود إله في الكون، وينكرون الدين لإثبات قضايا الوجود الإلهي، وتأصيل فطرية الدين في النفس الإنسانية.

كما هدم عقائد الدهريين الذين نسبوا الخلق إلى الدهر، وأنكروا الإحياء بعد الموت لإثبات الصانع، وتقرير عقيدة البعث.

وهدَم عقائد الكفار لإثبات وحدانية الله تعالي وإبطال الندية وعبادة ما سواه.

وهدَم عقائد اليهود المادية في الإله، وعقائد النصارى من حيث القول بالنبوة، والحلول والاتحاد وغيرها لنفي صفات المثلية والمشابهة عن الله تعالي.

وهدم عقائد عبدة الكواكب ليثبت أن إله الكون يجب أن يكون ثابتًا لا يتغير ولا يزول، وأن يكون منزهًا عن الأغيار.

كما هدم عبادة الأصنام، ليثبت أن النافع والضار هو الله ﷻ وحده، وأنه تعالي لا تحده حدود الزمان ولا المكان.

وهكذا دواليك.

إنها إذن منهجية قويمة .. منهجية "هدم" و "بناء" .. هدم لفاسد واهٍ ، وبناء لصالح قوي باقٍ.

وهكذا يرسي الإسلام قواعد العقيدة الحقة في عضون إبطاله لفاسد الاعتقاد، ويبين سداد الفكرة والنظرة المنضبطة بينما يوضح أوجه القصور والعجز في مدارك العقول.

ثالثًا: الوقاية:

تقتضي الحكمة العقلية "صيانة" المبنى بعد الإنشاء والتأسيس من التصدع والانهيار، ومثلما تقتضي وضع الضوابط لصيانة المعتقدات والأفكار من التفلت والانحراف.

فليس التأسيس والبناء فقط هو الغائيّ، وإنما الحفاظ عليه غاية الغايات.

ولم تكن غاية **"الهدم والبناء"** كواحدة من قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم مجرد تأسيس وإرساء قواعد الاعتقاد الصحيح، وإتمام بنائه الناضر، وإنما عنيت بإبقاء هذا البناء شامخًا لا يمس، ومصونًا لا ينال منه، وعنيت بأن تكون التوجهات العقدية في ذات المدعوين قوية وراسخة، كي لا يضلوا بعد هدى، ولا ينحرفوا بعد استقامة، وقد أدركوا لذة الإيمان، ومرارة الكفر، وحسن الاعتقاد الصحيح، وقبح الاعتقاد الفاسد.

إنه يجب عليهم قطع خط الرجعة إلى الماضي والانتكاسة فيه مرورًا بذلك إلى نقطة الصفر.

كما يجب عليهم قطع أي صلة بالعقائد القديمة، وموالاة الظالمين ومصادقة المنحرفين، أو الحنين إلى الأعراف والتقاليد البالية موروثات الآباء الفاسدة، ونعرات المجد الزائف، وحتى لا يتأثروا بشيء من ذلك.

منهجية القرآن الكريم في الهدم والبناء:

لم تكن قاعدة الهدم والبناء في المنهج الاستدلالي في القرآن الكريم عملاً غير

obeikandl.com

منهجي، إذ لم تكن من قبيل السرد الذى لا يراعي الواقع، ولا يلتفت إلى قدرات العقل وطاقات النفس، وإنما كانت عملاً يقوم على المنهجية القومية في التغيير الكائن في النفي والإثبات والنقض والإنشاء .. والإحلال والتركيب.

فقد اعتمد المنهج الاستدلالي في تقعيد هذه القاعدة الاستدلالية فيما يبدو على ركيزتين:

أولاً: بيان أوجه الفساد والعلل.

ثانيًا: بيان قيم البناء الراشد وغاياته.

أما بيان أوجه الفساد والعلل: فقد ركز القرآن الكريم في منهجية استدلاله عليه تركيزًا كبيرًا، إذا أن أهميته تأتي في بيان أن القرآن الكريم لم يَثُر على المعتقدات والأفكار والتصورات المنحرفة والواهية لمجرد الثورة فقط، أو الاتجاه إلى التغيير، ولم يكن هدمه لها ضربًا من الاعتساف والمصادرة، وإنما كان يقوم على بيان أوجه الفساد والعلل حتى تبرز في العقول خطورتها، وتقنع بضرورة التغيير، نظرًا لما يترتب على ذلك من خطورة على مسيرة الاعتقاد الصادق، والتفكير الواعي.

وأما بيان قيم البناء الراشد: فقد أبرزها القرآن الكريم أيضًا في معرض الاستدلال على عقائده الصحيحة، وشرائعه المنضبطة والمتوازنة، كما أبرز أوجه الحق فيها، وبين آثارها على الفرد، وغاياتها التي تهدف إلى عمارة الكون بدين الحق، وإخراج الإنسان من الظلمات إلى النور.

تأصيل هذه القاعدة:

لا مرية أن في القرآن الكريم بيات كثيرة تؤصل لقاعدة "الهدم والبناء" كواحدة من قواعد منهج الدعوة الاستدلالي.

ومما يدل على ذلك ما يلي:

(١) قول الله تعالى : ﴿ **نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ**

وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾[1].

(٢) وقوله تعالى ﴿قَالُواْ[2] مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ۝٨٧ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ۝٨٨ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۝٨٩ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ۝٩٠ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ۝٩١ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۝٩٣ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ۝٩٤ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ۝٩٥ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ۝٩٦ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ۝٩٧ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[3].

(٣) وقوله تعالى ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[4].

(٤) وقوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ

---

(١) سورة القلم (١ ـ ١٠).

(٢) أي قوم موسى عليه السلام له بعد عودته من الميقات. وقد صمعوا العجل وعبدوه من دون الله تعالى.

(٣) سورة طه (٨٧ ـ ٩٨).

(٤) سورة الكافرون.

ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1].

(٥) وقوله تعالى ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[2].

(٦) وقوله تعالى ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾[3].

(٧) وقوله تعالى ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟

---

(١) سورة الأنعام (٧٥ ـ ٨٢).

(٢) سورة هو (١١٢، ١١٣).

(٣) سورة الإسراء (٧٤، ٧٥).

صَٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٤﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[1].

(٨) وقوله تعالى ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾[2].

(٩) ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[3].

(١٠) وقوله تعالى ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾[4].

(١١) وقوله تعالى ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغُرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۢ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ

---

(١) سورة الأعراف ١١٣ ـ ١٢٢)
(٢) سورة الأنفال (٨).
(٣) سورة الأعراف (١٩٣).
(٤) سورة الأعراف (١٩٣).

﴿وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾[1].

دلالات التأصيل:

عندما نتأمل بعين ثاقبة، وبصيرة نافذة، ونظرة فاحصة هذه الآيات الكريمة نجدها واضحة الدلالة على تأصيل هذه القاعدة المنهجية لمنهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم: "قاعدة الهدم والبناء" لما يلي:

١ـ قوضت الآيات الكريمة قواعد البنيان العقدى المنحرف والذي ساد فترة من الزمن في بيئات مختلفة، وأنحاء متفرقة من الأمم والشعوب، وحتى تاهوا في ضروب الاعتقاد الفاسد، وعاشوا تحت وطأة الأوهام والظنون.

وهذا مدلول قوله تعالي "ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد . كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب".

ومدلول قوله تعالي حكاية عن إبراهيم عليه السلام: "وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان لا أخاف" .. الآية. ومدلول قوله تعالي عنه أيضًا" وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به سلطانًا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون".

---

(١) سورة غافر (٤ـ ١٢).

obeikandl.com

٢ـ بينت الآيات الكريمة أن الباطل ليس له قد يقف عليها.. لأنه يفتقد أدلة مصداقيته، بل يحوي بين طياته أدلة فساده وعلامات بطلانه، وهذا مدلول قوله تعالي ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗ ﴾[1].

٣ـ كما أشارت إلى أن الحق قيمة لا تقبل التنازل أو المداهنة وقد نهت الرسول ﷺ عن الميل لمداهنة المشركين الذين تمنوا مداهنه بل وعرضوا عليه ﷺ أن يتعبد بدينهم عامًا ويتعبدون بدينه عامًا، وهذا مدلول سورة الكافرون ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾.. إلي أن قال تعالي ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴾ كما بينت الآيات الكريمة أن الله تعالي حفظ رسوله ﷺ من الميل إليهم، "ولو لا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئًا قليلاً".

وهكذا أو جبت الآيات ضرورة أن تكون هناك فواصل قوية وراسخة، وحدود واضحة تأبي الخلط بين قيم الحق وبالباطل، أو حتى مجرد المساس بقيم الحق، ومبادئه العادلة، ومهجيته المعصومة وأنه لابد من أن تكون قوي الحق متحققة بالثبات لتستطيع الصمود والتحدي لقوى الباطل وجبروته وبطشه، وهذا مدلول قوله سبحانه: "فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين" وقوله تعالي "ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون".

٤ـ كما أشارت الآيات الكريمة إلى علل الفساد والانحراف العقدي من اتباع الهوي، وتغلغل النزعة المادية، وتغييب العقل، وأشارت إلى حتمية إزالتها، وضرورة المعالجة، وتقديم التصور الصحيح للدين والأصول والقواعد الصادقة لإرساء عقيدة صحيحة وتحقيق قيم البناء العقدي الراشد.

٥ـ كما بينت الآيات الكريمة محاسن هذا البناء العقدي الصحيح، وأنه أثر لانضباط الكون، وتحقيق التوازن النفسي، وأنه يهدف إلى تحقيق مصالح الإنسان

---

(١) راجع في هذا: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للعلامة برهان الدين البقاعي (١١/ ٤٨٤) مكتبة ابن تيمية، ط (١) ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، وفتح البيان في مقاصد القرآن الكريم: للعلامة أبي الطيب البخاري (٧/ ٤٣٢) المكتبة العصرية، بيروت ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

العاجلة والآجلة، وأن الملائكة تتولي الدعاء لمن صدقت عقيدتهم، وكمل إيمانهم، واستقامت سيرتهم "فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم .. "الآيات.

٦ـ وأصَّلت الآيات الكريمة ضرورة مراعاة الجانب الوقائي الذي يصون العقائد والشرائع من الانحراف، ويحفظ الإنسان من الترددي، وذلك بالنهي عن الركون إلى الظالمين، وهذا مدلول قوله تعالي" ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار".

obeikandl.com

المبحث الثامن

مراعاة مستويات الإدراك

من قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم "مراعاة مستويات الإدراك في إنشاء الأدلة"، فقد راعي القرآن الكريم في نصب الأدلة الفروق بين المدارك العقلية، وتفاوت العقول في فهمها والوقوف عليها حيث تتفاوت دلالاتها بين الظهور والخفاء، فقد تمثل في مخيلة البعض على نحو من الجلاء والوضوح، وقد تمثل في مخيلة البعض على نحو من الجلاء والوضوح، وقد تمثل في مخيلة الآخرين وهم يعجزون عن فهمها، لا لأن الأدلة تأتي فوق مستوى الإدراك العقلي، وإنما لأن هؤلاء لم يتأهلوا لفهمها وإدراك كنهها وماهيتها ومقتضياتها ونتائجها وأحكامها، إذ أنهم ليسوا من طلاب العلم وأهل الاختصاص الذين يستطيعون بناء المقدمات، وترتيب النتائج عليها، ونصب الأدلة واستنباط الأحكام منها، وإجراء القياسات التي تقتضي يقظة ووعيًا لفهم أو جه الشبه والفروق بين المقيس والمقاس عليه، من حيث ما يتفقان فيه أو يختلفان، ومن حيث طبيعة كل منها، والمصالح المتحققة فيهما، يختلفان، ومن حيث طبيعة كل منهما، والمصالح المتحققة فيهما، فإن إجراءات القياس تأتي على نحو من الدقة والعمق لتستوعب كل دلالات الحجج والبراهين والأدلة والشروط[1] والفروق والعموم والخصوص، والإجمال والتفصيل، والإطلاق والتقييد، وغير ذلك من مباحث الأدلة، ومناهج التفكير، وقواعد الجدل ومبادئه وآدابه ... الخ.

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية، تحقيق عصام الصباحي (١/ ١٢٠) وما بعدها، دار الحديث، ط: (٣) ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، والموافقات للإمام الشاطبي (٣/ ٢٣٢) مرجع سابق.

obeikandl.com

مراعاة طبيعة عمل العقل:

وقد جاءت هذه القاعدة لتراعي إلى جانب ما سبق طبيعة عمل العقل، الذي يعتمد على وسائل حسية قاصرة عن إدراك المدركات إدراكًا كليًا مطلقًا، لأنها تعمل في نطاق قدرتها، ووفقًا لطبيعتها التكوينية البشرية.

فالماديات هي مادة إدراكها، وكذلك المعنويات، بيد أن إدراكها للمعنويات يخضع لضوابط وقيود.

ولنا أن نفهم هذا في ضوء طبيعة عمل الوسائل الحسية مثل السمع والبصر واللمس والشم والتذوق، فثمة مدركات يستطيع البصر إدراكها إدراكًا مجردًا، وأخرى لا يستطيع إدراكها إلا بوسائل تكنولوجية دقيقة كالمهجر أو الميكروسكوب، ومدركات لا يمكن أن يدركها لا بهذه ولا بتلك.

فهو لا يستطيع إدراك الفيروسات ولا الكائنات الدقيقة بعينه المجردة، كما لا يستطيع إدراك أجرام في السماء تباعدت عن العين حيث دَقَّت مع عظمتها، ولطفت مع صخامتها، فللبصر درجة دنيًا ودرجة قصوى لا يستطيع أن يدرك ما دونها ولا ما فوقها.

وقس على ذلك السمع فثمة درجة دنيا ودرجة قصوى تدرك الأذن بها الأصوات، فلا تستطيع أن تدرك ما دون مستوى السمع، لضعف موجاته الصوتية، كما لا تستطيع أن تدرك ما فوق مستوى السمع مع قوته كالأصوات الصادرة عن حركة الكواكب والأجرام الضخمة في الكون مع قوتها. ولله تعالي في كونه أسرار.

أضف إلى ذلك أن العلم الحديث أثبت (أن العقل يعجز عن إدراك المادة التي هي موضوع إدراكه إدراكًا مطلقًا، حيث بين أن العقل حتى الآن ما زال يجعل إدراك بعض جوانب المادة التي يدركها ويؤمن بها)[1].

---

(١) راجع الثقافة الإسلامية والتحديات المعاصرة : تأليف د/ حسن عيسى عبد الظاهر وآخرون (ص ٢٣) مطابع الدوحة الحديثة المحدودة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م بتصرف.

وإذا كان هذا طبيعة العقل الخاص ـ عقل المتخصصين والباحثين ـ فما بالك بإدراكات العوام.

في ضوء ذلك نرى القرآن الكريم يخاطب العقل طبقًا لدرجة ثقافته وطاقاته الإدراكية، وقداته الذهنية، فهو يخاطب الفيلسوف بما يشبع نهمه المعرفي، ويثير في ذهنه قضايا تغري ملكاته الإدراكية فيعرض عليه القضايا في معرض الإثبات أو النفي في صورة مقدمات عقلية[1] ونتاج، وبراهين وأدلة وحجج، لأن هذا العقل الخاص أَلِف مناهج البحث، والتفكير العميق، والتحليل التركيب، والتأمل الفاحص .. إنه يلف الكون في ذاته، ويحاول جاهدًا احتواءه، والتنقيب عما استودع فيه من أسرار وآيا وعبر.

وفي ذات الوقت يتوجه إلى عقول العامة البسطاء في طرائق تفكيرهم، والذي لا يخترقون لُباب المعاني، ولا يسبِرون أغوار الأفكار، ولا يستطيعون تحليل القضايا، بل يتلقونها بظواهرها، ولا يدركون علاتها وعواهنها.

إنه يتوجه إلى هذه العقول بما يتفق وتركيبتها الفركية، وقدراتها البسيطة على التأمل والتفكير والنظر.

وفرْق بين هؤلاء وأولئك .. بين من لا ترضيه النظرة السطحية بل تضايقه لأنها تشعره بضآلة عقله، وبساطة تفكيره، وبين من لا يستطيع تجاوز الظواهر السطحية للأفكار، وتشعره محاولات اختراقها بالعجز والإعياء.

فلو خاطب القرآن عقول الحكماء والفلاسفة وأصحاب المنهج الجدلي، والرؤية النقدية بالأسلوب الذي يخاطب به العوام، حيث يلفتهم إلى الظواهر فحسب والعكس، لضاق بهم منهجه، وما وجدوا فيه متعة الإقناع، ولذة المؤانسة، وبالتالي يملوه، وينكروه، ويجحدوه.. ويكون الإسلام قد خسر قطاعًا ذا قيمة قد يكون

(١) ينبغي ألا يتوهم من هذا أن القرآن الكريم به نتاج عقلي، حشا لله، وإنما يقصد بهذا أن مقدمات القرآن في خطابه للعقل تتفق مع إدراكاته وتنسجم مع طبيعته، وهذا أبلغ وآكد في الإقناع.

obeikandi.com

أقدر الناس على فهمه، وأكثرهم تطلعًا إلى نشره والدعوة إليه، وهذه خطوة رائعة على طريق التحرير العقلي، تستوعب كل القدرات والطاقات والإمكانات على اختلاف طبيعتها ودرجتها (فما من خطوة في تاريخ البشرية حررت العقل، ووضعته في موقعه الصحيح، كهذه الخطوة: تحويل التوجه الإنساني من التعدد إلى الوحدة، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن عشق الحجارة والأصنام والتماثيل والأوثان، إلى محبة الحق، الذي لا تلمسه الأيدي، ولا تراه العيون، إنه كسر للحاجز المادي باتجاه الغيب، وتمكين للعقل من التحقق بقناعات تعلو على معطيات الحس القريب)[1].

هذا بناء على مخاطبة العقل بما يتلائم ويتناسب مع طبيعة إدراكه، وطريقة تفكيره.

لذا نجد أن من حكمة القرآن الكريم في منهج الاستدلال مراعاة الفروق بين المدركات، ومراعاة مستويات العقول في إدراكها.

تأصيل هذه القاعدة:

لا مرية أن تدبر آيات القرآن الكريم، ودراسة منهجيته القويمة توقفنا على آيات ودلالات تؤصل قاعدة "مراعاة مستويات الإدراك" كأحد قواعد منهج الدعوة الاستدلالي.

ومن هذه الآيات الكريمة ما يلي:

١ـ قول الله تعالى ﴿ **قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ** ﴾[2].

٢ـ قوله ﷻ ﴿ **أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ٢٧ وَمِنَ**

---

(١) إعادة تشكيل العقل المسلم: عماد الدين خليل (ص٣٥) مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ بتصرف يسير.
(٢) سورة الزمر (٩).

obeikandi.com

ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[1].

٣ـ قوله تعالى ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[2].

٤ـ وقوله تعالى عن الحوار الذي دار بين فرعون ونبي الله موسى عليه السلام: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ إلى قوله تعالى ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾[3].

٥ ـ وقوله تعالى ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ

---

(١) سورة فاطر (٢٧، ٢٨).

(٢) سورة الأنبياء (٢١ ـ ٢٣).

(٣) سورة طه (٤٩ ـ ٦١، ٦٥ ـ ٧٠).

﴿إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۦٓ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1].

٦ ـ وقوله تعالى ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[2].

٧ ـ وقوله تعالى ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[3].

دلالات التأصيل:

كما هو دأبه يمتعنا القرآن الكريم بدلالاته المنهجية الثرية، وإطلالاته النديّة على مدارك الإنسان ومجاري العقول، ومنافذ القلوب البصيرة لنستنبط منها دلالات التأصيل لهذه القاعدة **"مراعاة مستويات الإدراك"** كواحدة من أهم قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم. وإننا لنلمع إلى هذه الدلالات فيما يلي:

أولاً: تقرير اختلاف العقول:

تقرر الآيات الكريمة في ضمنية دلالاتها أن العقول مختلفة في مجاريها ومستويات إدراكها، وهذا يرجع إلى ما يلي:

١ـ طبيعتها التكوينية.

٢ ـ الوهب الإلهي.

٣ ـ إمكانيات الكسب البشري وطاقاته وقدراته.

٤ ـ إعاقة العقل عن التفكير والنظر والتأمل.

---

(١) سورة الأنعام (٤٦، ٤٧).

(٢) سورة يس (٣٧ ـ ٤٠).

(٣) سورة النمل (٨٨).

obeikandl.com

وهذا مدلول قول الله تعالي (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب).

إنما ينتفع بالتذكرة أصحاب العقول السليمة[1] التي جردت عنها كل معوقات الإدراك، وهذه قاعدة عامة في التفريق بين من يعي الحكمة ومن لا يعيها، وبين من يعلم ومن لا يعلم، وبين من يفكر ومن يتقاعس عن التفكير، وبين من امتلك أدوات النظر الصحيح ومن لم يمتلكها، ويترتب على ذلك استجابة وإقدام، أو إنكار وإحجام.

ولعلنا قد أشرنا إلى شئ من ذلك في بيان قاعدة "المقابلة والتمييز" لكن مقام الدلالة هنا مختلف عن ذاك.

ثانيًا: آيات تراعي الفوارق بين العقول:

لئن كانت آيات كريمات قد جاءت لتقرر هذه الفوارق في مستويات الإدراك بين العقول، فقد جاءت آيات أخرى لتراعيها، وتؤسس على ذلك خطابًا يتوجه إلى كل منها على قدر طاقاته وقدراته.

فقد راعت طبيعة ذوي الملكات الإدراكية الخاصة سواء نيلت بالجود الإلهي أو بالكسب، كما راعت عقول ذوي التفكير البسيط الذين لا يمتلكون تلك الملكات، ولم يكن لهم بمناهج التفكير سابق عهد.

ونستطيع أن نلمس شارات هذه الدلالة في مخاطبة العقول البسيطة بالظواهر الكونية المعتادة والمألوفة التي ترمقها أعينهم كل صباح، وتلفها كل مساء، كحركة الشمس والقمر التي لا يشكون في يقينيتها، وهي تكابد صفحات السماء ليلاً[2] ونهارًا.

بيد أنك قد لا تلمس هذه المعاني بنفس البساطة والظهور في مخيلات هؤلاء

---

(١)راجع تفسير روح المعاني للإمام الألوسي (١٣/ ١٣٩) مرجع سابق، وفتح القدير للشوكاني (٣/ ٧٩) درا الفكر، بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(٢) الشمس لا تغيب عن كبد السماء وإنما يختلف موقع الأرض منها فتحالها تغيب.

obeikandl.com

عندما تتأمل خطاب القرآن الكريم لأصحاب التفكير الدقيق، والنظر الثاقب، الذين يدركون قيم القياس الدلالية، ويستطيعون استنباط أوجه الشبه وصور المحاكاة.

وقد تمثل ذلك في حديث القرآن الكريم عن حركة الأرض بإشارات ضمنية لا تصريحية، يفهمها ذوو الملكات الخاصة ولا يفهمها الإنسان البسيط الذي لا يدرك من الأمور إلا ظواهرها.

فقد عبر عن حركتها بحركة الجبال التي تراها العين ساكنة، وشبهها بحركة السحاب ليقيس الإنسان الحركة الأولى بالحركة الثانية. لكن حركة الجبال لا يمكن أن تجري والأرض ساكنة حقيقة، فاستلزم ذلك حركة الأرض، وهكذا يأتي القياس وتكون المحاكاة والمشابهة، ولا يستطيع أن يدرك ذلك الإنسان العادي.

ثالثًا: معجزة نبي الله موسى عليه السلام وإدراك السحرة وعقول البسطاء:

لا مرية أن إدراك سحرة فرعون بحقيقة سحرهم يختلف اختلافًا كبيرًا عن إدراك البسطاء، الذين لا يعرفون طرائق السحر وأدواته، ولا هم صُنَّاعه ومهرته، وبالتالي لا يعرفون حقيقته، بخلاف السحرة الذين دأبوا هذا العمل القبيح واستمرءوه وأوهموا أنفسهم به، حتى دفعهم ذلك إلى تخيل أنهم قادرون على معارضة نبي الله موسى عليه السلام.

وجاءت معجزته عليه السلام لتتحدي ـ ليس البسطاء الذين صدقوا السحرة ـ وإنما السحرة أنفسهم، لأنهم أصدق إدراكًا بما يصنعون من غيرهم، ويثبت للعقول جميعًا بطلان السحر، لكنه لا يتحدى إلا من مهر به، لا من صدقه لأنه مخدوع فيه.

ويأتي القرآن الكريم ليصور هذا المشهد الذي تمثلت شخصياته في فرعون والسحرة ومن آمن بهم، ونبي الله موسى عليه السلام ومن صدقه وآمن به في يوم جُمِع له القوم ليشهدوا مصرع رسالة موسى عليه السلام المأمول .. ولكن هيهات .. هيهات!!!

ويبين القرآن الكريم استهلال السحرة بإيقاع السحر بناءً على موافقة موسى عليه السلام

(إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى. قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى. فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى. وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا. إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى. فألقي السحرة سجدًا قالوا آمنا برب هارون وموسى).

وكان السحرة على أمل إرهاب موسى عليه السلام وتعجيزه، وتمنوا أن يكونوا هم الذين يمتلكون زمام المبادرة لمحاولة التأثير على الناس، وإيجاد واقع نفسي يؤثر على اتخاذ القرار، ولم يكونوا يتوقعوا أن تدور الأرض دورتها، ويكونوا هم الخصم الأضعف والأوهي!!!

وبالفعل يلقي السحرة سحرهم، فخيل إلى الناس وإلى موسى عليه السلام أنها تسعى .. ويتوجس موسى عليه السلام خيفة .. ولكن الله تعالي يهدئ من روعه "لا تخف إنك أنت الأعلي"، وعندما ألقى ما في يده "العصا" إذا بها حية تسعى على الأرض سعيًا حقيقيًا لا كسعي ما ألقاه السحرة .. بل إنها تلقف ما صنعه هؤلاء السحرة وتأكله فلم يعد له أثر، وبقيت هي وحدها على الأرض، ثم أعيدت عصا مرة أخرى بقدرة الله تعالي.

والشاهد أن الله تعالي راعي مستوى إدراك السحرة وأقنعهم بطريقة عملية ببطلان ما يصنعون، وصدق ما جاء به موسى عليه السلام حتي آمنوا وكانوا أشد الناس إيمانًا به، وتحدوا فرعون ولم يبالوا بتهديداته ﴿ **قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ** ﴾[1].

فلم يتحدث عنهم القرآن الكريم ـ وهم أهل دراية بالسحر ـ حديثه عن غيرهم الذين لا يعرفون حقيقته، وإن كان هذا لا يمنع من إمتاع بعضهم ومؤانسته، فهو خطاب إلهي، تأخذ العقول.. كل منها بقدر ما أوتي من علم وحكمة، وتفكير وإدراك.

---

(١)سورة طه (٧٢، ٧٣).

وهذه طبيعة خطاب الخاصة، وخطاب العامة في القرآن الكريم، ومما يؤكد هذا ما قاله د/ عبد الله دراز: (فهاتان غايتان أخريان متباعدتان عند الناس، فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء، لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب، ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التي تخاطب الأذكياء لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم، فلا غنى لك إن أردت أن تعطي كلتا الطائفتين حظها من بيانك، أن تخاطب كل واحدة منها بغير ما تخاطب به الأخرى، كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال، فأما أن جملة واحدة تلقي إلى العلماء والجهلاء، وإلى الأذكياء والأغبياء، وإلى السوقة والملوك، فيراها كل منهم مقدرة على مقياس عقله، وعلى وفق حاجته فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم. فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوْفَى كلام بلطائف التعبير، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوي على أفهامهم، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة، فهو متعة العامة والخاصة على السواء، ميسر لكل من أراد ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾)[1].

وهكذا يتضح مدى أهمية هذه القاعدة المنهجية الدعوية الاستدلالية في نصب الأدلة وإنشائها لتراعي ملكات الإنسان وطاقاته وقدراته، ومراتب إدراكه، وتفاوت عقله من حيث دقة الفهم، وسطحية النظرة.. وعمق التأمل.. وظاهرية الفكرة، ومن حيث مراعاة خلفياته الفكرية الخصيبة والضحلة، وعن تلك التي تعرب عن ذكائه أو تفصح عن غبائه.

إنه منهج يتعامل مع هذه المراتب، ويراعي تفاوتها، فلم يأت لمرتبة دون أخرى، ولم يتوجه إلى طائفة الأذكياء دون الأغبياء، إن كل العقول تظهر فيها شارات المعاني الدلالية، وإن اختلفت في إدراكها وتفاوتت في فهمها.

---

(١)النبأ العظيم: د. عبد الله دراز (ص ١١٣) مرجع سابق.

obeikandl.com

وهذا أدعي لتقبل تلك العقول قضايا الدعوة والانفتاح عليها، وعدم الانغلاق دونها، الأمر الذي يتطلب من الدعاة إعادة التفكير في مناهج دعوتهم، وعدم الاهتمام بالمثقفين دون العامة وبالأذكياء دون الأغبياء.

obeikandl.com

المبحث التاسع

فساد الحكم ناشئ عن فساد التصور

مما لا يقبل الجدل أو النقاش، وما لا يختلف عليه اثنان، أن الحكم يدور مع التصور وجودًا وعدمًا، وصحة وخطأ، وقوة ضعفًا وإثباتًا ونفيًا، وأخذًا وردًا، وقبولاً ورفضًا، واعترافًا وإنكارًا.

وهذه واحدة من مسلمات النظر السليم، وشارة من شارات الحكمة وحسن الدلالة.

لذا نجد القرآن الكريم لا يكتفي فقط بإثارة تلك القضية في العقول، وإنما يجعلها مفردة من مفرداته المنهجية فيما يتعلق بأحد أخطر المناهج في الإثبات والنفي، وبناء الأحكام والأدلة، وهو منهج الاستدلال، فقد جاءت الأدلة القرآنية لتبين هذه القيم الثبوتية، وأثرها في التصور، وإصدار الأحكام.

ويقينًا مثلمًا هو بديهي أن التصور إذا جرد من معوقات الإدراك، وتشويش الأفكار، وتغييب العقل ينبثق عنه حكم صحيح، أما إذا ما تاه العقل في ضلالات الاعتقاد، وغياهب الفكر، ومآسن النظر، وركب متن الشطط، فلن يعود من رحلته إلا خاسئًا.. خاسرًا، ولم ينبثق عنه إلا تصور فاسد، وعبارات تائهة، ونظرات ضلت الحكمة، ونتائج جافت المنطق، وأحكام تصطدم بالواقع، فتعجز عن الانسجام معه، بل عن التعبير عنه!!

تأصيل هذه القاعدة:

ومما يؤصل هذه القاعدة ما يلي:

[١] قول الله تعالي حكاية عن فرعون: ﴿ **وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ**

obeikandl.com

أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[1].

[٢] وقوله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2].

[٣] وقوله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾[3].

[٤] وقوله تعالى ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾[4].

دلالات التأصيل:

عندما نتأمل هذه الآيات الكريمة نجدها تدور حول عدة معان تبرز قيمة

---

(١)سورة الزخرف (٤٥ ـ ٥٥).

(٢)سورة الزمر (٦٧).

(٣)سورة الأعراف (١٢٧).

(٤)سورة الأعراف (٨٠ ـ ٨٢).

التصور الصادق، وتبين فداحة خطورة التصور الفاسد، فصحة التصور مرهون به صحة الاعتقاد، واستقامة الخلق، واعتدال العقل، وصفاء الباطن، وانصباط الظاهر.

ولعل هذا يتمثل فيما يلي:

١ ـ إن خطأ الإنسان في تصور طبيعة الأشياء يقلب موازين الحق، ويذري بالقيم والمبادئ والمثل .. إنه يحصر الإنسان في دائرة المتناقضات، بل يجعله أميل إلى النقيض السالب منه إلى النقيض الموجب إن لم يكن يكفر به أو يجحده، إنه يرى الحق باطلًا والباطل حقًا، يرى الإيمان كفرًا والكفر إيمانًا، يرى العدل ظلمًا والظلم عدلاً يرى المعروف منكرًا والمنكر معروفًا .. بل إنه يذهب إلى ما هو أبعد من هذا: إلى إنكار ألوهية الحق سبحانه وتعالي وادعاء ألوهية البشر .. إنكار ألوهية الخالق، وادعاء ألوهية المخلوق!! إنكار ألوهية الرب وتوهم ألوهية المربوب !! إنكار الباقي وإثبات الفاني !! تعالي الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وهذا مدلول الآيات الكريمة السابقة والتي عرضت لمواقف من قصة فرعون تبدي خطورة انحراف التصور على العقيدة، وقد تمثل هذا في صورتين:

أولاهما: انحراف عقيدة الملأ من قوم فرعون إذ تصوروا نبوة نبي الله موسي عليه السلام إفسادًا في الأرض، لأنها تنكر عليهم عبادتهم الباطلة وتدعوهم إلى عبادة الله الحق سبحانه وتعالى .. وقد مثل هذا الانحراف في التصور ضغطًا نفسيًا واجتماعيًا قبيحًا على الملأ، إذ دفعهم إلى الضغط على فرعون، لضرورة التخلص من دعوة موسى عليه السلام والقضاء عليه (أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك).

ويبدي ضغط الملأ الذي صوره القرآن الكريم أن فرعون كان يعبد ألهة من دون الله بدليل "ويذرك وآلهتك".

وفي إجابة مدفوعة بالهوى، ناتجة عن خطأ التصور يقول فرعون "سنُقَتِّل أبناءهم .. ونستَحْيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون".

وهكذا دفع انحراف التصور الملأ من قوم فرعون إلى محاولة استئصال النبوة، ووأد الدعوة إلى الله تعالي، والتخلص من الدعاة المصلحين!

وفي ظل هذا تستطيع أن تتخيل البديل لهذا الصالح وخطورته على المجتمع .. إنه تأليه البشر .. وقتل المؤمنين الأبرياء!!

ثانيتهما: انحراف عقيدة فرعون نفسه بانحراف تصوره، إذ غره ملكه وغره استخفافه قومه، وطاعتهم له، فادعى الألوهية، وقال لهم "أنا ربكم الأعلى" .. "ما علمت لكم من إله غيري" .. "أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون أم أنا خير من هذا الذي هو مَهين ولا يكاد يبين".

ياله من تصور فاسد !! هل كل من ملك ملكًا أو حكم قومًا يكون إلهًا؟! لو كان الأمر كذلك لرأى الناس آلهة كثيرة متعاقبة تحكمهم فتموت فيشيعونها، ثم ينصبون آلهة أخرى مكانها، وينتظرون موتها لتنصيب أخرى وهكذا.

أنظر إلى روعة المنهج الاستدلالي وهو يربط صحة الحكم بصحة التصور، وفساد الأول بفساد الثاني، وكيف أنه لا يمكن فصم عُرَى كل منهما عن الآخر.

٢ ـ كما يبدو هذا بجلاء ووضوح في قصة نبي الله لوط عليه السلام مع قومه، إذ تبين كيف دفعهم فساد تصورهم، وتخبط عقولهم إلى ضرورة التخلص من لوط عليه السلام وآله، لا لشئ إلا لأنهم رفعوا لواء الإيمان، وأرادوا تطهير المجتمع من الفاحشة، والارتقاء به من البهيمية إلى الإنسانية المهذبة، وهذا مدلول قوله تعالى (فما كان جوابَ قومِه إلا أن قالوا أَخرِجوا آل لوط من قريتكم إنهم أُناسٌ يتطهرون).

وما يقال في هذا يقال في سابقه.